الكتاب : دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية وتطورها مرحلة النشأة حتى الخليل بن احمد
المؤلف : الأستاذ عبد الحسين المبارك
ملاحظة: [هذا الكتاب من كتب المستودع بموقع المكتبة الشاملة]

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية وتطورها مرحلة النشأة حتى الخليل بن احمد

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية وتطورها

مرحلة النشأة حتى الخليل بن احمد

الأستاذ عبد الحسين المبارك

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية وتطورها

مرحلة النشأة حتى الخليل بن احمد

الأستاذ عبد الحسين المبارك

مقدمة

كان العرب ينطقون عن سليقة فطروا عليها ، فلا يجهدون الذكر في أي ترتيب المفردات أو بناء الجمل ، وهم في حال معرفه تامة بأساليب كلامهم عل وفق ما جبلوا عليه، وما توارثوه من أسلافهم . غير أنهم بعد مجيء الإسلام ، ومخالطتهم المعاجم مالت ألسنتهم إلى اللحن ، والخروج عن أصول الكلام إلى مالا تحمد عقباه ، فكانت غيرتهم على الدين وعربيتهم دافعاً لوضع النحو .

وفي مستهل حديثنا نشير إلى معنى النحو في اللغة والاصطلاح ، قال ابن دريد(1) : (النحو القصد ، فحوت الشيء نحوه نحو إذا قصدته .

وكل شيء أقمته ويممته جميعاً فقد نحوته ، ومنه اشتقاق النحو في الكلام ، كأنه قصد الصواب) .

وقال ابن السكيت(2) : ونحا الشيء ينحاه وينحوه إذا حرفه ، ومنه سمي النحوي لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب) .

وقال ابن منظور(3) : (النحو إعراب الكلام العربي ، والنحو القصد والطريق ، يكون ظرفاً ويكون اسماً ، ونحاه ينحوه وينحاه نحواً ، وانتحاه ، ونحو العربية منه) .

والنحو في الاصطلاح : انتحاه سمة كلام العرب ، في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية ، والجمع ، والتحقير ، والتكسير والإضافة والنسب والتركيب ، وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية

بأهلها في الفصاحة ، فينطق بها وان لم يكن

****

(1) الجمهرة 1 \ 575 تح : د . رمزي منير بعلبكي .

(2) اللسان ، نحا ، 20 \ 181

(3) اللسان ، نحا ، 20 \ 181

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 2 .

منهم . وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها ، وهو في الأصل مصدر شائع ، أي نحوت نحواً ، كقولك قصدت قصداً ، ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم ، كما انه الفقه في الأصل مصدر فقهت الشيء أي عرفته ، ثم خص به علم الشريعة من التحليل والتحريم(4) .

ويقول السكاكي(5) : (بأن تنحو كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطه من استقراء كلام العرب ، وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية .) .

ويقصد بكيفية التركيب (تقديم بعض الكلام على بعض ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك ، وبالكلم نوعيها المفردة وما هي في حكمها(6)) . والسكاكي رجل بلاغه ، وتعريفه للنحو أو مفهومه للنحو لا يخلوا من

التأثير البلاغي ، وكذلك الحال عند عبد القاهر الجرجاني(7) .

كما عرفه الشريف الجرجاني(8) بقوله : (النحو هو علم بقوانين يعرف بها أحوال التركيب العربية من الإعراب والبناء ، وغيرها ، وقيل النحو علم يعرف به أحوال الكلم من حيث الإعلال ، وقيل علم بأصول يعرف بها صحيح الكلام وفساده) ، وكان يطلق عليه عند العرب (العربية) أو (الكلام) أو اللحن أو الإعراب(*) .

****

(4) الخصائص 1 \ 34 ، واللسان (نحا) 20 \ 184 .

(5) مفتاح العلوم 33 .
(6) مفتاح العلوم33 .
(7) دلائل الإعجاز ص 21 .
(8) التعريفات 259 . 260 .
* انظر : المدارس النحوية د . خديجة الحديثي 50 . وطبقات الزبيدي ص 12 ، 13 ، 37 ، 39 ، وغيرها ،
وقد استعملت لفظة (العربية) في مقابل كلمة (نحو) وظلت مستعملة حتى أواخر القرن الرابع .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 3 .
وضع النحو وواضعه
والنحو عربي النشأة فكراً ووضعاً (وزعم بعض المستشرقين إن علم النحو منقول من لغة اليونان لأن لآن وضعه في العراق إنما كان بعد خلاط العرب للسريان وتعلمهم ثقافتهم ، وللسريان نحو قديم ورثوه عن اليونان(9)) .
ولكننا نقول : إن الدافع الذي مهد لنشأة الدراسات النحوية هو الخوف على نصوص القرآن الكريم من التحريف نتيجة لتوسع رقعة الدولة الإسلامية ودخول غير العرب من الدين الجديد .

ولذا نقر بسبب وضع النحو ، اعني قواعد النحو المكتوبة ، كما نقر بالحقبة التي دونت فيها تلك القواعد ، وهي القرن الأول للهجرة ، بلا تحرج أو تخوف ، أو تردد ، ولا تسلم بما ذهب إليه مصطفى صادق الرافعي بقوله : (أما تاريخ وضع النحو فلا سبيل إلى تحقيقه البتة) .
واستناداً إلى هذه المقولة ذهب إبراهيم مصطفى إلى (إن معرفة واضع النحو في العربية يكاد يكون معضلة)(11)
والنحو كما نعرفه ينموا مع لغة الإنسان ، يتعلمه من محيطه الضي يعيش بين أفراده ، بسليقة صافيه ، قبل أن يتعلم قواعده المدونة ، ولهذا نذهب إلى إن هذا العلم لم يبدأ التفكير به إلا بعد تصدع السليقة ، وتسرب اللحن ، وليس مستبعداً أن يتواءم الاهتمام بتدوين قواعده والدين الإسلامي الجديد .

الذي لم يكن خاصاً بالعرب وحدهم . كما إن مبادئ الدين الإسلامي السامية التي وجدت ، وأخت بين المسلمين من جميع الأجناس جعلت الاختلاط بين العرب ميسوراً ، وبذلك تسرب
****

(10) تاريخ آداب العرب 1 \ 266 .

(11) اللغة والنحو 154 نقلاً عن بحث للأستاذ إبراهيم مصطفى بعنوان (أول من وضع النحو) في مجلة كلية

الآداب . جامعة فؤاد الأول المجلد العاشر . الجزء الثاني . ديسمبر 1948 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 4 .

اللحن إلى الألسنة فمالت إلى اللكنة ، وكان ما كان من أمر النشأة .

وهذه هي قصة النحو العربي وواضعه ، كما ذكرتها الروايات :. قال أبو الطيب اللغوي (351 هـ)(12) : (واعلم إن أول ما اختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الإعراب ، لأن اللحن ظهر في كلام الموالي والمتغربين في عهد النبي (ص) ، فقد روينا إن رجلاً لحن بحضرته فقال : ارشدوا أخاكم فقد ضل) .

(5/1)

ثم أتى على واضعه فقال : (ثم كان أول من رسم للدرس النحو أبو الأسود الدؤلي فيما حدثنا به أبو الفضل جعفر بن محمد بن بابتويه ، قال : حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن حميد قال :اخبرنا أبو حاتم السجستاني ، واخبره أبو بكر محمد بن يحيى قال : حدثنا محمد بن يزيد النحوي قال : حدثنا أبو عمر ألجرمي ، عن الخليل ، قالوا : وكان أبو الأسود اخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي عليه السلام لأنه سمع لحناً ، فقال لأبي الأسود : اجعل للناس حروفاً ، وأشار له إلى الرفع والنصب والجر ، فكان أبو الأسود ضنيناً بما أخذه من ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام .)(13) .

أما رواية السيرافي(14) فتجمع بين الروايات المختلفة عن نشأة النحو وتتفق مع الأكثرية التي تشير إلى أبي الأسود ، قال : (اختلف الناس في أول من رسم النحو : فقال قائلون أبو الأسود الدؤلي وقال آخرون نصر بن عاصم الدؤلي وقال آخرون عبد الرحمن بن هرمز ، وأكثر الناس على أبي الأسود الدؤلي) .

أما أبو بكر الزبيدي(15) (379 هـ) فقد ذكر إن أبا الأسود (أول من أسس العربية ، ونهج سبلها ، ووضع قياسها) .
ويروي ابن فارس(16) (395 هـ) ، إن العربية والعروض كانا معروفين قديماً ، ثم أتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس حتى جاء أبو الأسود فجدد العربية ، وجاء الخليل فأحيا العروض .
****

(12) مراتب النحويين 23 .

(13) مراتب النحويين 24 .

(14) أخبار النحويين البصريين 10 .

(15) طبقات النحويين واللغويين 21 .

(16) ألصاحبي 38 .

ويذكر ابن النديم(17) سبب وضع النحو في حديث يرويه عن محمد بن اسحق يقول : قال محمد بن اسحق : كان بمدينة الحديثة رجل يقال له محمد بن الحسين ، ويعرف بابن أبي بعرة جماعه للكتب ، لم أر لأحد مثلها كثيرة تحتوي على قطعه من الكتب الغريبة في النحو واللغة والأدب ، والكتب القديمة ، فلقيت بهذا الرجل دفعات فأنس بي ، وكان نفوراً ضنيناً بما عنده ، وخائفاً من بني حمدان ، فأخرج لي قمطراً كبيراً فيه نحو ثلاثمائة رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصر وورق صيني وورق تهامي وجود أدم وورق خراساني ، فيها تعليقات (لغة) عن العرب وقصائد مفردات من أشعارهم ، وشيء من النحو والحكايات والأخبار والأسماء والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم .
ثم ذهب في تفصيل وصف تلك الكتب إلى إن أتى على وصف مجموعه من الخطوط القديمة فقال : (وكان على كل جزء أو ورقه أو مدرج توقيع بخطوط العلماء واحداً اثر واحد يذكر فيه خط من هو ، وتحت كل توقيع ، توقيع أخر خمسه وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض ، ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبي الهياج صاحب علي عليه السلام ، ثم وصل هذا المصحف إلى أبي عبد الله بن هاني رحمه الله ، ورأيت فيها بخطوط الأئمة من الحسن والحسين عليهم السلام ، ورأيت

عدة أمانات وعهود بخط أمير المؤمنين عليه السلام وبخط غيره من كتاب النبي عليه السلام ، ومن خطوط العلماء بالنحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء ، وأبي عمرو الشسيباني والأصمعي وابن الإعرابي وسيبويه والفراء والكسائي ... ورأيت ما يدل على إن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته ، وهي أربعة أوراق احسبها من ورق الصين ترجمتها :

هذه فيها كلام من الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمه الله عليه ، بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوي ، وتحته هذا خط النضر بن شميل ، ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر ، وما كان فيه ، فما سمعنا فلا سمعت له خبراً ولا رأيت منه غير المصحف هذا على كثرة بحثي عنه :)

****

(**17**) الفهرست **46** .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . **6** .
أما أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ابن الانباري (**18**) ، فقد
أفاد (إن أول من وضع علم العربية ، وأسس قواعده ، وحد حدوده ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي . . .) .
ثم جاء سبب وضع النحو بقوله (وسبب وضع علي (رض) هذا
العلم ما روي أبو الأسود قد دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رض) فوجدت في يديه رقعه .
فقلت ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال إني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعني الأعاجم) فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه ويعتمدون عليه .
ثم ألقى إلي الرقعة وفيها مكتوب (الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ به ، والحرف ما جاء لمعنى) .
وقال لي انح هذا النحو ، وأضف إليه ما وقع إليك ، واعلم يا أبا الأسود إن الأسماء ثلاثة ظاهر

ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر ، وارد بذلك الاسم المبهم .

ثم قال بأبي العطف والنعت ، ثم بأبي التعجب والاستفهام والى أن وصلت إلى باب ، (إن وأخواتها) ماخلا (لكن) فلما عرضتها على علي (رض) أمرني بضم لكن إليها ، وكنت كلما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه (رض) إلى إن حصلت معه معافية الكافية ، قال ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت . فلذلك سمي النحو)(19) .

(8/1)

والى هذه الرواية نفسها أشار القفطي(20) (646 هـ) في معرض حديثه عن واضح النحو وسبب وضعه .

ولم نأت بجديد إذا ذكرنا أسباب وضع النحو فالروايات جميعاً تعزو ذلك إلى شيوع اللحن ، والخوف على كتاب الله العزيز من أن يتسرب إليه ، ويغير ما أنزل

****

(18) نزهة الالباء 17 .

(19) نزهة الالباء 18 . 19 .

(20) أنباء الرواة 1 \ 4 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 7 .

الله على نبيه الكريم . ومن هذا ما ذكر عن الإمام علياً (رض) سمع إعرابيا يقرأ (لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ)(21) فوضع النحو(22) .

وهناك رواية أخرى ذكرها ابن الانباري(23) مفادها إن إعرابيا قدم في خلافة عمر بن الخطاب (رض) فقال : من يقرؤني شيئاً مما انزل الله على محمد

(ص) ؟ فأقرأ رجل سورة براءة فقال : (أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)(24) بالجر فقال الإعرابي : أو قد بريء الله من رسوله ؟ أن يكون الله بريء من رسوله فأنا ابرأ منه ، فبلغ عمر (رض) مقالة الإعرابي فدعاه ، فقال له : يا إعرابي أتبرأ من رسول الله ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إني قدمت من المدينة ، ولا علم لي بالقرآن فسألت من يقرؤني فأقرأني هذا سورة براءة فقال : (أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ

الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) فقلت : أو قد بريء الله تعالى من رسوله ؟ إن يكن الله تعالى بريء من رسوله فأنا ابرأ منه .

فقال عمر (رض) له : ليس هكذا يا أعرابي ، فقال : كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إن الله بريء من المشركين ورسوله . فقال الإعرابي : وأنا والله ابرأ ممن بريء منه الله ورسوله منهم .

فأمر عمر (رض) أن لا يقرا القران إلا عالم باللغة . وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحو .

(9/1)

وروي إن زياد ابن أبيه بعث إلى أبي الأسود الدؤلي فقال له : يا أبا الأسود إن هذه الحمراء قد كبرت وأفسدت من السن العرب ، فلو وضعت لهم شيئاً يصلح

به الناس ويعرب به كتاب الله ، فأبى أبي الأسود ، وكره إلى إجابة زياد إلى ما سأل ، فوجه زياد رجلاً وقال له : اقعد على طريق أبي الأسود فإذا مر بك فأقرأ شيئا من القرآن وتعمد اللحن فيه فقعد ذلك الرجل عن طريق أبي الأسود ، فلما مر به رفع صوته وقرأ : (إن الله بريء من المشركين ورسوله) ـ بكسر اللام ـ فأستبعد أبو الأسود ذلك وقال : عز وجه الله تعالى أن يبرأ من رسوله . ورجع من فوره إلى زياد فقال :

****

(21) الحاقة 37

(22) نزهة الالباء 19

(23) المصدر نفسه 19

(24) التوبة 3

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية ـ 8 ـ

يا هذا قد أجبتك على ما سألت ، ورأيت إن النبأ بإعراب القرآن ، فأبعث إلي ثلاثين رجلاً ، فأحضرهم زياد واختار منهم أبو الأسود عشره ، ثم مازال يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد ألقيس ، فقال له : خذ المصحف ، وصيغاً يخالف لون المداد ، فإذا فتحت شفتي فانطق واحدة فوق الحرف ، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف ، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله ، فأن

اتبعت شيئاً من الحركات غنه فأنقط نقطتين ، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على أخره .
ثم وضع المختصر المنسوب إليه بعد ذلك(25) .

وينقل الرواية الأخرى ابن الانباري(26) وينسبها إلى أبي الأسود وأبن زياد كذلك غير انه في هذه الحالة ينقلها عمن ينسبها إلى عاصم بن أبي النجود احد القراء وفيها إن أبا الأسود جاء إلى زياد وهو أمير البصرة فقال : إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وفسدت ألسنتها فتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون بت كلامهم ؟ فقال له زياد : لا تفعل قال : فجاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير توفي أبانا وترك بنون فقال له زياد : (توفي أبانا وترك بنون !) ادع لي أبا الأسود فلما جاءه قال له : ضع للناس ما كنت نهيتك عنه ، ففعل . وروي أن ابنة أبي الأسود قالت له : ما أحس السماء فقال لها : نجومها ، فقالت : إني لم أرد هذا وإنما تعجبت من حسنها . فقال لها : (إذن قولي : ما أحسن السماء !) فحين إذ وضع النحو .

وأول

ما رسم منه باب التعجب .

وروى أبو سلمه بن إسماعيل عن أبيه قال : كان أبو الأسود من وضع النحو بالبصرة ، وزعم أن أول من وضع النحو نصر بن عاصم .

والمعروف أن نصر بن عاصم اخذ من أبي الأسود(27) .

يقول أبي الانباري(28) : والصحيح أن أول من وضع النحو علي بن أبي

****

(25) نزهة الالباء 91 . 20

(26) المصدر نفسه 21

(27) نزهة الالباء 21

(28) المصدر نفسه

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 9 .

طالب (رض) لأن الروايات كلها تسند إلى أبي اسود ، وأبو الأسود ينسبه إلى علي ، فأنه روي عن أبي الأسود انه سئل فقيل له : من أين لك هذا النحو ؟ قال : لقنت حدوده من علي بن أبي طالب

.

ويقول القفطي (646 هـ)(29) : ومن الرواة من يقول : أن أبا الأسود هو أول من استنبط النحو ، وأخرجه من العدم إلى الوجود ، وانه رأى بخطه ما أستخرجه ، ولم يعزه إلى احد قبله) .

(11/1)

وقد علق الدكتور إبراهيم السامرائي(30) على الرواة من مقول : أن أبا الأسود مع الإجماع أو شبه الإجماع على واضع النحو فقال : (ولا نريد أن نعتق على رواية ابن الانباري في نشأة النحو ومقدار مشاركة كل من أبي الأسود الدؤلي وعلي بن أبي طالب عليه السلام ولكني أقول : إذا كان من المحتمل أن يتوصل في ذلك العصر المتقدم إلى أن الكلمة اسم وفعل وحرف ، فليس من السهل أن يلوح للذهن مسألة الظاهر والمضمر ، ما ليس بظاهر أو مضمر ، وهو المراد به المبهم ! .

ولكن الذي نقيده من هذه الأخبار كلها ـ على اضطرابها واختلافها ـ أن أبو الأسود هو أول من وضع شيء من الضوابط الإعرابية ، وان مادة نحو مرتبطة به) .

أما لماذا كانت البصرة هي المدينة المهيأة لنشأة النحو ؟ فهذا أمر لا يخفى على من يلم بمعرفة الثقافة البصرية وعناصرها في تلك الفترة ، وعوامل الامتزاج الثقافي التي كانت شائعة في البصرة باعتبارها ميناءً تجارياً وملتقى طرق القوافل بين الشرق والغرب ، ولقربها من جند يسابور ومدرستها التي اختلطت فيها الثقافة اليونانية والهندية والفارسية ، فل نستغرب وجود مترجمين مثل ماسر جويه وغيره ممن اهتموا بنقل ما يدور في تلك المدرسة إلى البصرة يضف إلى هذا عقلية البصريين التي تفتحت على تلك الثقافات بحكم الموقع الجغرافي ، وانتقال المثقفين إليها ممن لهم اطلاع واسع

****

(29) أنباء الرواة 1 \ 7

(20) تنمية اللغة في العصر الحديث 147

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية ـ 10 ـ

على تلك من أمثال المفقع .

ومن المحدثين اللذين عضدوا الروايات التي أسندت نشأة النحو إلى أبي الأسود الأستاذ علي النجدي

ناصف(31) ، فقد قال : (نعم ، فعندي أن واضع النحو هو الأسود الدؤلي ، والموجه إليه هو الإمام علي رضي الله عنه . . .) .

(12/1)

كما قال الدكتور عبد الفتاح شلبي(32) : (ولا يسع الباحث أن ينكر ما كان لأبي الأسود الدؤلي من باكورة في هذا النشاط ، وما يؤثر عن أبي الأسود بعد بذره تعهدها النحاة من بعده ، ورعوها حق رعايتها) .
ويقول محمد الطنطاوي(33) : (فليس بغريب على أبي الأسود الذي أوتي العلم الواسع أن يلهم هذا الفن) .
ويقول سعيد الأفغاني(34) ومن يقرا بإمعان ترجمة أبي الأسود في تاريخ دمشق لأبن عساكر مثلا يفكر في شوارد أكثر المصادر على جعله وضع الأساس في بناء النحو لا يستبعد ذلك لأن الرجل ذو ذكاء نادر وجواب حاضر وبديهة نيره) .
ويضيف الدكتور مازن المبارك(35) : (فأية غرابه إذن في أن تدور بين أبي الأسود وصديقه ابن أبي طالب أحاديث تتصل باللغة وكلاهما بها عالم وشغوف . أن لحناً واحداً يسمعه احدهما ـ وكان اللحن إذا ذاك معروفاً كما رأينا ـ كف ليعلق احدهما عليه ، أو ليكون محوراً لحديث يدور بينهما ... وأما إذا وضع أبو الأسود فهو ما نعتقد أن القدماء لم يختلفوا فيه ، ولكننا اختلفنا في فهم ما أرادوه) .
ومن خلال تتبعنا لآراء المؤرخين واللغويين لم نجد خلافاً واضحاً لافتاً للنظر في الواضع الأول ، فهم بإجماع الآراء يتفقون على أن أبا الأسود هو الواضع لقواعد في
****

(32) أبو علي الفارسي 50
(33) نشأة النحو 12
(34) في أصول النحو 160
(35) النحو العربي ـ العلة النحوية 30

الصورة المتعارف عليها آن آنذاك ، ولم يشذ عنهم إلا ابن الانباري حينما عزاه إلى الإمام علي بن أبي

طالب (رض) وذلك بإشارة من إجابة أبي الأسود حين سئل من أين لك هذا النحو ؟ فقال : لقنت حدوده من علي بن أبي طالب(36) .

(13/1)

وصحبة أبي الأسود للإمام علي معروفه ومشهوره ، وهي تدل على ولازمة الرجل لصاحبه ، والحوار معه حول مجمل القضايا اللغوية التي يعني بها الاثنان كما هو شائع عن غيرتهما على العربية ، وليس ببعيد أن يكون الإمام علي (رض) هو الذي أوحي إلى أبي الأسود .

يقول الدكتور مازن المبارك(37) : (نحن لا نستبعد أن يكون شيئاً كهذا دار بين علي وصديقه الدؤلي ، وان يكون وفاء أبي الأسود دفعه إلى الاعتراف بالفضل مع انه هو الذي وسع وفرع أو نفذ وطبق وعلم .

وأما أن يكون علي هو الواضع الأول وهو الذي قسم الكلام ، بدءاً الأقسام التي لم يخالفها احد حتى اليوم مع ما نعرفه عنه رضي الله عنه من انهماك في أمور الخلافة والخلاف فأمر عجيب) .

ولعله استوحى رأيه هذا من مقولة الأستاذ سعيد الأفغاني(38) (التي جاء فيها : (لست ادري هل أبقت أمور الخلافة والحروب والفتن لعلي وقتاً يفرغ فيه للتأليف في العلوم وتنقيحها واختراعها) .

وما قاله الأفغاني ، وما ردده المبارك لا يقف حائلاً دون قيام الإمام علي بمثل تلك الملاحظات الأولية في تأسيس النحو ، وهو المعروف عنه بالعلمية الشاملة في المعرفة ، الإحاطة باللغة والفقه بشهادة العرب والمستشرقين من المسلمين وغيرهم .

لكننا حين نناقش تلك الأمور وما يتعلق منها بالنحو فإنما نشير إلى تلك الروايات جميعاً حتى لا نبخس الناس أشياءهم .

****

(36) نزهة الالباء 22

(37) النحو العربي 29

(38) في أصول النحو 155 وانظر : ضحى الإسلام 2\285 . والمدارس النحوية – شوقي ضيف 14

أما ارتباط النشأة بأبي الأسود فأمر تحققه سعة الاطلاع للرجل ، ومفكره الوقاد ، وذكاؤه المفرط ، وغيرته على العربية وتلمذته للإمام علي (رض) .

أوليات النحو البصري ومصطلحاته :

(14/1)

لاشك أن هناك أوليات للنحو وضعها الواضع الأول أبو الأسود الدؤلي ، ولكننا نبقى في تساؤلنا هل هي علامات الإعراب من رفع ونصب وجر ؟ أم هي تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف ؟ أم هي نقط المصحف فقط ، على ما أشارت إليه الروايات المختلفة ، أم كان ذلك وضع أسس النحو بشكلها الذي يعد مثل بدايات أي علم من العلوم(39) .

كما إننا لا نعرف شيئاً عما قيل بشأن كتاب أبي الأسود (المختصر) كما يزعمون ، فلم يصل إلى علمنا ما يشير إلى وجوده ، أو النقل منه .

ولا يشير إلى العلم الذي أخذه عنه ابنه عطاء ، وكيف كان ، وهل هو بدايات مرحلة التأسيس لهذا العلم ، أم انه امتداد وتطور لمرحله سابقه مهما كانت ؟ .

(وتاريخ النحو في منشأه غامض كل الغموض ، فأنا ترى فجأة كتاباً ضخما ناضجاً وهو كتاب سيبويه ، ولا نرى قبله ما يصح أن يكون نواة تبين ما هو سنة طبيعيه من نشوء وارتقاء ، وكل ما ذكروه من هذا القبيل لا يشفي غليلاً)(40) .

أما أشهر ما عرفناه من مصطلحات في أوليات هذا العلم عند البصريين فهي(41) العربية :

****

(39) ينظر : نزهة الالباء 18 ، وطبقات الزبيدي 11

(40) ضحى الإسلام 2 \ 285

(41) لمزيد من الاطلاع ينظر كتاب : (المصطلح النحوي – نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري . عوض حمد القوزي) .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 13 .

وتقابل مصطلح (النحو) ، قال ابن سلام(42) : (وكان لأهل البصرة في العربية قدمة ، بالنحو ولغات العرب والغريب عناية .

وكان أول من أسس العربية وفتح بابها ، وانهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي) .

وقال أبو عبيده محمد بن مثنى(43) : (اخذ أبو الأسود عن علي بن أبي طالب عليه السلام العربية) .

وعن عاصم(44) قال : جاء أبو الأسود الدؤلي إلى عبيد الله بن زياد يستأذنه في أن يضع العربية فأبى) .

(15/1)

يتبين مما سلف ذكره أن المقصود بالعربية هو المقصود نفسه بالنحو غير أنهم اعني النحاة الأوائل ما كانوا يعرفون لفظه ، على كل (النحو) مثلما نعرفها نحن ، غير أنهم كانوا يطلقون لفض (العربية) على كل ما يبين طرق الأداء التسليم ، والتعبير الصحيح ، ويقود إلى فهم المعاني من خلال انتظام أجزاء الكلام في عبارات مترابطة .

الكلام

جاء في حديث أبي الأسود أن الموالي وشيوع اللحن فيهم : (هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ودخلوا فيه ، فصاروا لنا إخوة فلو علمناهم الكلام(45) وقصده هو عين ما كان يقصده بـ (العربية) .

****

(42) طبقات فحول الشعراء 1 \ 12 والشعر والشعراء 2 \ 713

(43) أخبار النحويين البصريين 15

(44) المصدر نفسه 15

(45) أخبار النحويين البصريين 18

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 14 .

اللحن

قال أبو الأسود(46) : (إني لأجد للحن غمراً كغمر اللحم) .

والمقصود به الخطأ في اللغة ، فهو من المصطلحات الأولى في علم النحو ، لأنهم كانوا يدركون مواقع الكلم في حديثهم ، ويعزون كل خروج عن سليقتهم إلى اللحن لمخالفته الإعراب . وكانوا يعدونه عيباً في الكلام ، ومنقصه في الفهم .

أما معاني اللحن الأخرى فهي : النحو ، فقد قال عمر بن الخطاب (رض) : (تعلموا الفرائض

والسنة والنحو كما تتعلمون القرآن) .
ومعناه الفطنة والذكاء والفصاحة ، واللغة . وعده ابن الانباري(47) من الأضداد بقوله : (واللحن حرف من الأضداد ، يقال للخطأ لحن) .
وكان عبد الملك بن مروان يقول : (شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن)(48) .
الإعراب
ومن المصطلحات الأولى (الإعراب) وكان شائعاً في القرن الأول الهجري ومن معانيه : الإبانة والإفصاح ، وفي الحديث الشريف : الثيب معرب عنها لسانها) .
****
(46) طبقات الزبيدي 22

---

(47) طبقات الزبيدي
(48) الأضداد 238
(49) التحفة البهية 49
دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 15 .
وقال عمر بن الخطاب (50) (رض) : وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب) . أي النحو .
النحو
ذكرنا من قبل معنى لفظة (نحو) في اللغة والاصطلاح ، وهنا لابد أن نشير إلى أن هذا العلم سمي بالعربية تارة وبالإعراب أخرى ، غير أن العرب لم يطلقوا عليه اسم (النحو) إلا في القرن الثاني الهجري ، غير انه لم يعرف أول من أطلق هذه اللفظة عليه ، وقد وردت عند يونس بن حبيب حينما سئل : هل يقول حد الطريق ؟ بمعنى السويق ، قال : عمرو بن تميم يقولها ، وما تريد إلى هذا ؟ عليك بباب من النحو يطرد وينقاس(51) .
وأول ما يلقانا مصطلح (النحو) عند ذكرهم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي بقولهم : (أول من بعج النحو ، ومد القياس والعلل)(52) .
كما ذكر ذلك أيضا أبو الطيب اللغوي(53) في قوله عن عبد الله بن أبي إسحاق : (كان يقال عبد الله اعلم أهل البصرة ، وأعقلهم فرع النحو وقاسه) .

وحينما مدح الخليل أستاذه عيسى بن عمر استعمل مصطلح النحو :.
بطل النحو iiكله غير ما أحدث عيسى بن عمر
أما وجدناه عند أبي الأسود الدؤلي من ذكر هذا المصطلح فلا يعني سوى القصد أو الجهة ، وليس هذا العلم المعروف بجميع أبوابه وما يندرج فيها من تفصيلات .
ومن المصطلحات الأولى التي كان لعلماء البصرة دور الزيادة في وضعها
****
(51) طبقات فحول الشعراء ظ \ 14 ، وطبقات الزبيدي 32
(52) طبقات الزبيدي 33 ، وطبقات فحور الشعراء 1 \ 14
(35) مراتب النحويين
دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 16 .
فهي علامات الإعراب من فتح وضم وكسر وما يتبعها من غنة .
وان كان أبو الأسود (يصف الظاهرة وصفاً لغوياً ، ولم يعبر عنها بالاصطلاح لأنه لا يستطيع ذلك(54) .

(17/1)

وأول ما رسم من أبواب باب التعجب(55) ، وأبواب الفاعل ، والمفعول ، والمضاف ، وحروف الرفع والنصب والجر ، والجزم ، والإمالة ، وغيرها .
الأثر الأجنبي في نشأة الدراسات النحوية
كثر الحديث عن نشأة الدراسات النحوية كثرة أفقدتها بعضاً من سمات الموضعية ، ملا شابها من تعصب الدراسيين أحيانا ، والافتقار إلى الدقة العلمية أحيانا أخرى .
فالمستشرقون يحاولون في أكثر جوانب البحث العلمي نفي الأصالة عند العرب في نشأة العلوم والمعارف الإنسانية ، وينسبون كثيراً من معارف العرب إلى الأثر اليوناني أو الهندي ، ويوافقهم على ذلك بعض الذين تأثروا بدراساتهم من الباحثين العرب ، كما يحاول بعض الدارسين العرب في نفي كل اثر للعلوم الوافدة إلى العرب من الشرق أو الغرب .

ونحن نقف في حيره من الأمر في هذين الاتجاهين .غير أن الحقيقة يجب أن تقال مهما كانت لاسيما في

مجال البحث العلمي ، فالحضارة الإنسانية لم تكن حكراً على قوم دون الآخرين ، ولم تكن وقفاً على امة من الأمم دون سواها .

فإذا ما افتخرنا بالريادة في علم من العلوم فهو فخر لنا ولغيرنا أن كان نفعه عاماً .

وان أخذنا من غيرنا لكونهم سبقونا إلى شيء من المعرفة الإنسانية فلنمضي إلى الأخذ عنهم ولا نقف عند حدود الأخذ .

وجميع ما قيل من تأثر الدراسات النحوية واللغوية بما عند اليونان والهنود والسريان ، إنما هو ضرب من القول لا أساس له من التوثيق العلمي المستند إلى الآثار

****

(54) المصطلح النحوي . نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري . 32 .

(55) أنباء الرواة 1 \ 14

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 17 .

المدعمة بالنصوص . يقول الدكتور شوقي ضيف(56) :

(وحاول بعض المستشرقين أن يصلوا بين نشوء النحو في البصرة والنحو السرياني واليوناني والهندي غير انه لا يمكن إثبات شيء من ذلك إثباتا علمياً ، وخاصة أن النحو العربي يدور على نظرية العمل وهي لا توجد في أي نحو أجنبي .

وكل ما يمكن أن يقال انه ربما عرف نحاة البصرة الأولون أن لبعض اللغات الأجنبية نحواً فحاولوا أن يضعوا نحواً للعربية راجعين في ذلك إلى ملكاتهم العقلية التي كانت قد رقيت رقياً بعيداً بتأثير ما وقفوا عليه من الثقافات الأجنبية وخاصة الفلسفة اليونانية ، وما يتصل بها من المنطق ، مما دعم عقولهم دعماً قوياً ، وجعلها مستعدة لأن تستنبط قواعد النحو وعلله وأقيسته) .

ونحن حين نؤرخ للدراسات النحوية في البصرة إنما نؤرخ لنشأة تلك العلوم والدراسات فيها عند العرب ، لأن البصرة هي المدينة الأولى التي اقترن بها اسم هذا العلم ، وفيها أصلت قواعده ومنها خرجت إحكامه ، ونقلت إلى الكوفة وغيرها من الأمصار الإسلامية ، حملها تلامذة علماء البصرة وأشاعوها في بلدانهم لنهم وجدوا (حاجه اجتماعيه وحضاريه إلى تعلم قواعد هذه اللغة للقراءة والكتابة فيها بصوره صحيحة ثم لتعلم لغة أصحاب الدين الجديد لمعرفة كتابهم المقدس .)(57) .

والعرب شأنهم شأن أي امة من الأمم لهم تاريخهم وحضارتهم التي شهدت مولد علومهم ، وأسس رقيهم وتقدمهم ، ومن تلك العلوم النحو العربي الذي حفظ كلامهم وصان لسانهم من الخطأ ومن الزلل ، بفعل ما انتظمه من قواعد وأحكام ، تماماً كما فعلت الأمم من قبلهم ومن بعدهم . وكلنا لا نعلم بالضبط مقدار الاتصال وسبيله .

وما تم من تقليد وقواعد الأمم التي سبقتهم .

فما قدم من قبل المستشرقين وبعض العرب لا يقطع بأمور التقليد ، كما لا يجزم بالإبداع والابتكار ، ونحن لا ننكر هذا ولا ذاك ، وكذا نقول : إن هناك تشابهاً في مرويان المؤرخين عن أسباب نشأة النحو بين العرب غيرهم .

(19/1)

****

(56) المدارس النحوية شوقي ضيف 20 .

(57) في التفكير النحوي عند العرب . د . زهير غازي 37 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 18 .

1 . التأثير الهندي

تشير الدراسات إلى إن ابن المقفع نقل ألوانا من ثقافة الهند عن طريق ترجمته لكتاب (كليله ودمنه) كما أن للتجارة دوراً آخراً في نقل وسائل الثقافة الهندي والتأثر بها ولاسيما إن البصرة مرفأ تجاري قريب من الهند ، وتجارة البصرة تعتمد بالأساس على ما تنتجه الهند من توابل وغيرها ، وان تجارها كانوا على صله مباشرة بالهند وهذا الاتصال لم يكن السبب الرئيس في نقل قواعد اللغة الهندية إلى العربية أو التأثير بها .

ولكن ما ذكره البيروني(58) يشير إلى إن قصة نشأ النحو الهندي شبيه بنشأة النحو العربي ، فقد كان احد ملوك الهند مع احد نسائه في حوض فقال لها : (ماود كندهي) : أي احملي حلوى ، فذهبت فأقبلت بها ، فأنكر الملك فعلها ، فخاشنته بالخطاب ، فأستوحش الملك ، وامتنع عن الطعام كعادتهم واحتجب إلى إن جاءه احد علمائهم وسلى عنه بأن وعده تعليم النحو والصرف . وذهب إلى (مهاديهو) مصلياً مسبحاً وصائماً متضرعاً ، إلى أن ظهر له وأعطاه قوانين بسيرة ، كما

وضعها في العربية أبو الأسود الدؤلي ، ووعده التأييد فيما بعدها من الفروع . فرجع العالم إلى الملك فعلمه إياها ، وذلك مبدأ هذا العلم .

يقول احمد أمين(59) : (وأني أخشى أن تكون حكاية أبو الأسود قد وضعت في العربية على نمط الحكاية الهندية) .
ويعلق على ذلك الدكتور زهير غازي بقوله(60) : (أظن أن هذا الربط بين الحكاية الهندية ، وعمل أبي الأسود ، وجهوده اللغوية ، واختلاف الروايات العربي في وضع النحو ، لا يوحي بأي اثر ولا أية صله في هذا المجال) .
****

---

(58)ضحى الإسلام 1 \ 245 نقلاً عن مقولة البيروني
(59) ضحى الإسلام 1 \ 245
(60) في التفكير النحوي عند العرب 56
دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 19 .
والذي نراه في هذه الرواية أنها مجرد مصادفه وتماثل بين قصة أبي الأسود والإمام علي أو ابن زياد ، وقصة النحو الهندي ونشأته . ولسنا نرى أي توافق بين النشأتين إلا في هذه الصورة التي حاولوا من خلالها إيجاد تلك الصلة .
2 . الأثر السرياني
أما مسألة التأثير السرياني في نشأة النحو العربي فيقودنا إلى الوشائج التي تربط العربية بالسريانية لتكون لغتين ساميتين ، ولذا يتبادر الشك أو الوهم أو التصور إلى انهما كليهما يتفقان في وجود حركات الإعراب ، وهذا دليل على أن العربية تحاكي السريانية في ذلك ، كما أن السريان سبقوا العرب إلى التأليف في النحو .
يقول الجرجي زيدان(61) : (ويغلب على قولنا أنهم . أي العرب . نسجوا في تبويبه . أي النحو . على منوال السريان لأن السريان دونوا نحوهم ، وألفوا فيه الكتب في أواسط القرن الخامس للميلاد ، وأول من باشر في ذلك منهم الأسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب ، المتوفي سنة 460 م

.

فالظاهر أن العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم ، وفي جملتها النحو فأعجبهم ، فلما اضطروا إلى تدوين نحوهم نسجوا على منواله ، لأن اللغتين شقيقتان) .

ولم يكن جرجي زيدان وحده مال إلى هذا الرأي ، بل هناك كثيرون من العرب ذهبوا هذا المذهب في تأثير السريانية في النحو العربي ، باعتبار السريان وسيطاً في لنقل الفكر اليوناني إلى العربية . وعن هذا الطريق ادخل المترجمون علوم اليونان والسريان إلى العربية .

وكثير من المؤرخين أشاروا إلى أن أبا الأسود الدؤلي اقتبس نقط الإعراب من السريان ، وكما نعرف أن الكتاب المقدس يسمى اللغة السريانية باسم الآرامية دائماً كما جاء في سفر الملوك ، ودانيال ، وعزرا ، واشعيا(62) ولم يقطع الدكتور إبراهيم

(21/1)

****

(61) تاريخ آداب اللغة العربية 1 \ 225

(62) دراسات في اللغة السريانية والعربية 13

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 20 .

السامرائي(63) بمحاكاة أبي الأسود للسريان في حركات العرب بل قال : (وربما اقتدى العرب والعبرانيون بالاراميون في استنباط الحركات).

ويبدو أن المحدثين من اللغويين العرب لم يجزموا بذلك لعدم وجود سند تاريخي يؤيد دعواهم : (واللذين قالوا بذلك لم يعتمدوا على دليل تاريخي قاطع ، وإنما اعتمدوا على الظن والمقارنة والاستنتاج)(64) .

أما الدكتور حسن عون(65) فقد وافق جرجي زيدان في مقولته السالفة عن اعتماد أبي الأسود على نحو السريان في نقط الإعراب مبرراً ذلك بأنه لا يحط من قدر الرجل وعلميته . يقول حسن عون : (أما طريقة الشكل ، وهي اللبنة الأولى في بناء النحو العربي فقد استمدها أبو الأسود الدؤلي من النحاة السريانيين ، ونحن نقرر مبدئيا بأنه ليس في ذلك ما يضير النحو العربي ، ولا يقلل من قيمة مجهود أبي الأسود فيه).

وهو يقرر ذلك ويؤكده بقوله : (ومن الأدلة ما يبين بوضوح أن أبا الأسود قد استمد طريقة نقط

الشكل من لدن النحاة السريانيين . من هذه الأدلة أن أبا الأسود اتخذ بيئة العراق موطناً ، وكان بها والياً إداريا ، وفيها عالماً لغوياً ، وزعيماً دينياً . ونحن نعلم أن هذه البيئة كانت قبل الفتح العربي وبعده مغزوة باللغة السريانية ، أو بالمعارف السريانية ، وكانت إلى جانب ذلك آهلة بالعلماء السريانيين ، وميداناً لدراستهم ، ومناقشاتهم ، لا في الناحية الدينية أو الفلسفية فقط ، ولكن في مختلف العلوم الإنسانية ، ومنها اللغة والنحو . . .)(66).

ويذهب به الظن إلى معرفة أبي الأسود اللغة السريانية ، بقوله : (على أننا نظن بل نرجح أن أبا الأسود كان يعرف اللغة السريانية معرفه تمكنه من التفاهم بها ،

****

(63) المصدر نفسه 12

(64) في التفكير النحوي عند العرب 74 . 75

(65) اللغة والنحو 248

(66) اللغة والنحو 249 . 250

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 21 .

وقراءة بعض نصوصها إلى حد ما . . .)(67) .

ويذهب أنيس فؤيحه(68) إلى مثل ما ذهب إليه الدكتور حسن عون ، فقد قال : (ولا شك أن العرب اخذوا الفكرة عن جيرانهم من الشعب السريانية) .

ونحن لا نرجح تلك الآراء التي تجزم بتعلم أبي الأسود اللغة السريانية ، ولا تلك التي تقطع بالاستعانة بطريقة السريان في وضع رموز الشكل للكتابة العربية ، لفقدان الدليل المادي أولا ، وان تلك الآراء تسلب علماءنا قدراتهم على الإبداع والابتكار ثانياً . فليس كثير على أبي الأسود أن يضع نظاماً خاصاً بالحركات . وهو العالم الذي وضع أسس النحو العربي .

3 . الأثر اليوناني

للبصريين أصالة في الفكر ، وتعمق في المعرفة الإنسانية بفعل اتصالهم بالثقافات المختلفة ، وخاصة الفكر اليوناني ، ومنطق أرسطو واقيسته ،. وكان علماء الكلام بالبصرة على صله عميقة بالفلسفة اليونانية ، غير أن ذلك لم يكن ذا اثر فعال في الدراسات اللغوية ، ومنها دراسة النحو . وما ذهب

إليه المستشرقين من كون الدراسات النحوية قامت بعد اطلاع العرب على النحو اليوناني وتقليدهم النحويين اليونانيين في ذلك فأمر بعيد عن واقع الحال . نفاه بعض المستشرقين واعترفوا بأصالة الفكر العربي .

ومن هؤلاء المستشرقين المصنفين جيرارثروبو أستاذ فقه اللغة العربية في السوربون ، فقد نشر بحثاً قيماً بعنوان (نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه)(**69**) جاء فيه : (أن النظام النحوي العربي يحتل محلاً بارزاً بين انظم النحوية الكبرى الموجودة في العالم) .

وأشار في بحثه إلى أن المستشرق الألماني **MERX** الذي نشر منتهى القرن

****

(23/1)

(**67**) المصدر نفسه **251**

(**68**) في اللغة العربية وبعض مشكلاتها **156**

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 22 .

التاسع عشر كتاباً عنوانه (تاريخ صناعة النحو عند السريان ، هو الذي زعم لأول مره أن المنطق اليوناني اثر في النحو العربي ، لأن الثاني قد اقتبس من الأول بضعه من المفاهيم والمصطلحات .

وأعقبه جمله من المستشرقين الذين رددوا رأيه دون تحفظ من أمثال المستشرق الفرنسي **FLeisch**

.

وأشار جيرارتروبو إلى أن المستشرق الانكليزي **CArter** ، رفض هذا الرأي في مقالة نشرها منذ عدة سنوات ، وسماها (في أصول النحو العربي) فيبين في هذه المقالة أن سيبويه يستعمل في الكتاب مجموعتين من المصطلحات مجموعه قليلة العدد تتضمن مصطلحات لعلها يونانية الأصل ، ومجموعه كثيرة العدد تتضمن المصطلحات العربية الأصل ، منقولة من الفقه إلى النحو .

كما أشار إلى المستشرق الهولندي **versteegh** الذي نشر كتاباً عنوانه (العناصر اليونانية في الفكر اللساني العربي) دافع فيه عن نظرية التأثير اليوناني في النحو العربي (فيعتبر أن النحاة العرب القدامى قد اقتبسوا بضعه من المفاهيم والمصطلحات لا من المنطق اليوناني كما زعم **Merx** بل من النحو اليوناني ، وذلك بواسطة اتصالهم المباشر باستعمال النحو اليوناني الحي كما يقول ، في مراكز الثقافة اليونانية الموجودة في الشرق الأدنى بعد الفتح العربي)(**70**) .

ورد جيرارتروبو على المستشرقين القائلين بمثل هذا التأثير مفنداً مزاعمهم ، فقد وجه انتقاده إلى إبعاد تقسيم الكلام في اللسانين اليوناني والعربي مختتماً ذلك بقوله (فمن الناحية اللسانية يظهر لنا انه من المستحيل أن يكون التقسيم العربي منقولاً من التقسيم اليوناني لأن عدد الأقسام تختلف في النظامين اختلافاً تاماً(71)).

****

(69) انظر مجلة مجمع اللغة العربية الأردني – العدد الأول المجلد الأول 1978

(24/1)

---

(70) جيرارتروبو – نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه 126

(71) المصدر نفسه 128

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 23 .

ومن الناحية التاريخية ذهب جيرارتروبو إلى أن قدامى النحاة العرب لم يعرفوا المنطق اليوناني في القرن الثاني للهجرة ، الثامن للميلاد ، إذ أن تأليف أرسطو لم تنقل بعد إلى اللغة العربية ، فأننا نعلم أن الكتاب في العبارة ، والكتاب في المقولات لم يترجما إلا في القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد ، على يد حنين بن إسحاق . كما نعلم أن الكتاب في الشعر لم يترجم إلا في القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد ، على يد متي بن يونس).(72) .

وقال ليتمان : من قبل أن العرب أبدعوا النحو ابتداء ، وانه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما أخترعه هو واللذين تقدموه(73) .

ونحن نقول أن النحو العربي نشأ عربياً ، وسمي علم العربية ، كما نص عليه الأقدمون . وأن كان للفكر الأجنبي تأثير فيه فأنه تم في مرحله غير مرحلة النشأة شأن العلوم الإنسانية الأخرى من حيث التأثير والتأثر .

أوائل النحاة البصريين وجهودهم في الدراسات النحوية

أبو الأسود الدؤلي (74)

هو ظالم بن عمرو بن سفيان ، وقيل ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان ، وقيل بن سفيان بن جندل بن عمرو بن عدي بن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة .

****

(72) نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه 133 . 134 .
(73) المدارس النحوية د . خديجة ألحديثي 45 .
(74) ينظر في ترجمة : وطبقات الزبيدي 7 \ 299 والمعارف 192 ومراتب النحويين 42 ، وأخبار النحويين البصريين 13 ، وطبقات الزيدي 21 ، ونزهة الالباء 18 ، وأنباه الرواة 1 \ 13 ، ومعجم الأدباء 12 \ 34 والوفيات 1 \ 240 ، وطبقات القراء 3 \ 345 ، والخزانة 1 \ 281 ، وأبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو . د . فتحي الدجيني .
دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 24 .

(25/1)

هذه الاختلافات وردت عن اغلب من كتبوا عنه ، وكان اختلاف في تقديم سلسلة النسب بعضها على بعض ، أو إسقاط بعض الأسماء منها . وكان عبد الله بن عباس لما خرج من البصرة استخلف عليها أبو الأسود الدؤلي ، فأقره الإمام علي بن أبي طالب (ع) عليها .

أسرته

ينتمي إلى أسره عريقة في النسب إلا وهي تتصل بالنسب النبوي الشريف ، وهي أصيلة العروبة(75) .

ومع هذا الفخار المتناهي لم يرد ذكر لأسرته في آثاره . أما زواجه فكانت له أربعة نساء ولقد أنجب ولدين هما : عطاء ، وأبو حرب من زوجته القشيرية أم عوف . كما ذكر أن له بعض البنات .

اسلامه

تذكر اغلب الروايات انه اسلم في حياة الرسول (ص) ، وقد وردت هذه الرواية في الأغاني(76) : (أن أبا الأسود الدؤلي أدرك الإسلام وشهد بدراً مع المسلمين) نقلاً عن أبي عبيده ، وقد فندها لأن أبا الأسود لم ير الرسول (ص) ، بل اغلب ما ذكرته الروايات انه تابعي .

في البصرة

هاجر أبو الأسود إلى البصرة زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وسكنها وبني فيها مسجداً خاصاً به ، غير أن الروايات لم تذكر السنة التي هاجر فيها ، كما لم يرد ذكر لسبب هجرته ، والمعروف أن رقعة الدولة الإسلامية بدأت

****

(75) نهاية الأرب 1 \ 32 .

(76) الأغاني ط . دار الكتب 12 \ 301 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 25 .

بالتوسع أيام التحرير الإسلامي وانحسر نفوذ الفرس عن العراق ، وبتشجيع من الخلفاء الراشدين انقسم لنقل الدعوة الإسلامية إلى الأمصار برجالها . من مجاهدين ، وأصحاب رأي ، وشعراء ، وخطباء .

أبو الأسود ونشأة النحو العربي

(26/1)

ذكرنا من قبل اقتران نشأة النحو العربي بأبي الأسود ، ونقول الآن : تكاد تجمع الروايات أن أبا الأسود يعد الواضع الحقيقي لعلم النحو ، مع اختلاف السرد ، وذكر الأطراف التي أسهمت معه أو كانت الباعث في حثه على وضع اللبنة الأولى في هذا الصرح العظيم .

قال أبو بكر الزبيدي(77) : (هو . أي أبو الأسود . أول من أسس العربية ، ونهج سبيلها ، ووضع قياسها ، وذلك حين اضطرب العرب ، وصار سراة الناس ووجوههم يلحنون ، فوضع باب الفاعل ، والمفعول به ، والمضاف ، وحروف النصب والرفع والجر الجزم) .

وذكر القفطي(78) : (وروي عن أبي الأسود قال : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . عليه السلام . فأخرج لي رقعة فيها : (الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى) . قال : قلت ما دعاك إلى هذا ؟ قال : رأيت فساداً في كلام بعض أهلي ، فأحببت أن ارسم رسماً يعرف به الصواب من الخطأ ، فأخذ أبو الأسود النحو عن علي . عليه السلام . ولم يظهره لأحد) .

وقال أبو الطيب اللغوي(79) : (وكان اعلم الناس بكلام العرب ، وزعموا انه كان يجيب بكل لغة) . وقال الدكتور عبد العال سالم مكرم(80) : (أن سيبويه تناول في كتابه

****

(77) طبقات النحويين واللغويين 21 .

(78) أنباء الرواة 1 \ 5 .

(79) مراتب النحويين 27 .
(80) الحلقة المفقودة من تاريخ النحو العربي 29 .
دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 26 .
قضية الضمير المتصل بعد لولا ، وأفاض القول في هذا الضمير ، وتناوله النحو بعده بالمناقشة والحوار ، مع أن هذه القضية نسبت إلى أبي الأسود . فقد ذكر صاحب العقد (2 \ 485) أن أبا الأسود قال : أن من العرب من يقول : لولاي لكان كذا وكذا ، وقال الشاعر :
وكم موطن لوالي طحت كما هوى بأجراما لقلة النيق iiمنهوي
أن نسبة هذه الرواية إلى أبي الأسود تؤكد إحساسه بالنحو ، ومعرفته بواقع الكلام) .

(27/1)

وعرف عن أبي الأسود جمع رواية الحديث إلى قراءة القرآن ، كما عرف بالإحاطة بلغة العرب وأشعارها(81) .
ومما تقدم يبدو أن أبا الأسود وضع جملة من أبواب النحو التي ذكرنا بعضاً منها وهي أبواب : الفاعل ، والمفعول ، والإضافة ، والتعجب ، والنعت ، وعوامل الرفع والنصب والجزم والجر .
أما مقدار ما وصل ألينا من هذه الأبواب ، وكيف قدمها للدارسين فأمر لا يعدو الإشارة ، دون خوض في التفصيلات . (وليس معنى هذا انه وضع أبوابا كاملة كما يفهم من تعبير الرواة ، بقولهم :. (وضع باب كذا) وإنما يعني انه تكلم عليه ببعض ما عنده ، ولا تتوقع منه أن يشرح ويؤصل ، كما في كتاب سيبويه ، أو كتب ابن مالك)(82) .

ميمون الأقران(83)
أخذ النحو عن عنبسة ، وقيل أخذ عنبسة عنه ، وهما من تلامذة أبي
****
(81) المفصل في تاريخ النحو العربي 98 .
(82) المدارس النحوية د . خديجة الحديثي 63 .
(83) انظر ترجمه في : مراتب النحويين 30 ، وأخبار النحويين البصريين 29 ، وطبقات الزبيدي 30 ، وبغية الوعاة 2 \ 309 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 27 .
الأسود ، قال أبو عبيدة(84) : (أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي ، ثم ميمون الاقرن ، ثم عنبسة الفيل ، ثم عبد الله إسحاق) .
والأخبار ضننته في سيرة الرجل ، ومبلغ علمه ، سوى ما ذكر أبو الطيب اللغوي(85) عن كيته ، ومراتب النحو بعد عنبسة ، وزاد في الشرح ، ثم نوي ، وليس في أصحابه احد مثل عبد الله بن إسحاق الحضرمي) .
وقال عنه ياقوت(86) : (هو الإمام المقدم بعد أبي الأسود الدؤلي ، اخذ عن أبي الأسود ، واخذ عنبسة بن معدان الفيل في اصح الروايتين) .
ويقال أن أبا الأسود لما نقط المصاحف ، ورسم من النحو حدوداً زاد عليه ميمون الاقرن ، مما يدلل على علمه ، ومعرفته بالحدود النحوية .
نصر بن عاصم (ت 89 هـ)(87)

هو نصر بن عاصم الليثي، قال ابن أبي سعد : حدثنا خلف بن هاشم البزاز قال : حدثنا محبوب البصري ، عن خالد الحذاء قال : سألت نصر بن عاصم ، وهو أول من وضع العربية ، كيف تقرأ (قل هو الله احد ، الله الصمد) فلم ينون . فأخبرته أن عروة ينون فقال : بئسما قال . وهو للبئس أهل . فأخبر عبد الله بن أبي إسحاق بقول نصر بن عاصم . فما زال يقرأ بها حتى مات(88) .
وقال عنه عمرو بن دينار : اجتمعت أنا والزهري ونصر بن عاصم ،
****

(84) أخبار النحويين البصريين 19 ، ومعجم الأدباء 19 \ 220 .
(85) مراتب النحويين 31 .
(86) معجم الأدباء 19 \ 209 .
(87) انظر ترجمة في : أخبار النحويين البصريين 15 ، وطبقات الزبيدي 27 ، الأنباء 3 \ 343 ومعجم الأدباء 19 \ 224 ، والبغية 2 \ 345 .
(88) طبقات الزبيدي 27 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 28 .

أخذ نصر بن عاصم علمه عن يحيى بن يعمر ، وعرف بالفصاحة ، ويذكر بعض المؤرخين انه تلميذ لأبي الأسود الدؤلي .

ليس بين أيدينا مما ذكره الرواة شيء عن النحو الذي اشتهر به ، أو العربية التي كان يفلق بها – ولكنا لا نتجاوزه حينما نذكر نشأة النحو العربي وأعلامه .

من تلامذته المشهورين عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، وأبو عمرو بن العلاء .

نعته ياقوت الحموي(89) بالنحوي ، وقال عنه : (كان فقيهاً ، عالماً بالعربية ، من فقهاء التابعين ، وكان يسند إلى أبي لاسود الدؤلي في القرآن والنحو ، وله كتاب في العربية ، وكان يرى رأي الخوارج)

.

(29/1)

والذي نراه عن نصر بن عاصم انه كان لا يختلف عن سواه من تلامذة أبي الأسود في احتواء الأصول النحوية الأولى ، دون تثبيتها في كتب ودراسات مستقلة ، تعالج موضوعات يشبع فيها التحليل العميق للدرس النحوي المسبوق بالمعرفة التامة بالمصطلح الذي يحدد مفهوم ذلك الدرس . غير انه لا ينفي معرفة هؤلاء الرواد بأصول المحاضرة الغوية ، وما يحيط بها من فكر واجتهادات .

عنبسة الفيل (ت 100 هـ)(90) :

هو عنبسة بن معدان ، من أهل ميسان ، قدم البصرة ، وأقام فيها ، وكان يقال له معدان الفيل .

يقول أن الأنبا ري(91) : (وسبب ذلك أن عبد الله بن عامر كان له فيل في البصرة، وقد استكثر النفقة عليه ، فأتاه معدان ، فتقبل بنفقته ، وفضل

****

(89) معجم الأدباء 20 \ 224 .

(90) ترجمته في : مراتب النحويين 30 ، ونزهة الالباء 22 ، وأخبار النحويين البصريين 18 ، ومعجم الأدباء 16 \ 133 ، وأنباه الرواة 2 \ 381 .

(91) نزهة الالباء 22 . 23 .

في كل شهر فكان يدعي معدان الفيل فنشأ له عنبسة فتعلم النحو على أبي الأسود وروى الشعر) .
ويروي عن أبي عبيده معمر بن المثنى انه قال (92) : (اختلف الناس إلى أبي الأسود الدؤلي يتعلمون منه العربية ، فكان ابرع أصحابه ابن عنبسة بن معدان المهري ، واختلف الناس إلى عنبسة ، فكان ابرع أصحابه ميمون الاقرن) .
وقد هجاه الفرزدق بقوله :.

لقد كان في المعدان والفيل زاجر لعنبسة الراوي علي iiالقصائد

وسبب ذلك كما ذكر ياقوت(93) : (كانت لزياد ابن أبيه فيلة ينفق عليها في كل يوم عشرة دراهم ، فأقبل رجل من أهل ميسان يقال له معدان ، فقال : ادفعوها إلي وأكفيكم المؤنة ، وأعطيكم عشرة دراهم كل يوم ، فدفعوها إليه فأثرى وابتنى قصراً ، ونشأ له ابناً يقال له عنبسة ، فروى الأشعار وظرف وفصح ، وروى شعر جرير والفرزدق ، وانتمى إلى بني أبي بكر بن كلاب فقيل للفرزدق هنا رجل من بني أبي بكر بن كلاب يروي شعر جرير ويفضله عليك ، ووصفوه له فقال : رجل من بني أبي بكر بن كلاب على هذه الصفة لا أعرفه ، فأروني داره ، فأروه فقال : هذا ابن معدان الميساني ، ثم قص قصته وقال : (البيت) .
فروي البيت بالبصرة ، ولقي عنبسة أبا عيينة بن المهلب فقال له أبو عيينة : ما أراد الفرزدق بقوله : (البيت) .
فقال : إنما قال : لقد كان في معدان اللؤم زاجر) .
وعنبسة وميمون من هذه الطبقة التي أخذت عن أبي الأسود ، وكان لها فضل في نشأة الدرس النحوي في البصرة مقترناً بالدراسات اللغوية الأخرى ، وقد اجمع الرواة على ما تمتعوا به من علم وسعة اطلاع .
****

(92) المصدر نفسه وأخبار النحويين البصريين 19 .
(93) معجم الأدباء 16 \ 133 .

عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (117 هـ) (94) :

هو عبد الله بن زيد بن الحارث الحضرمي البصري أبو بحر بن أبي إسحاق ، مشهور بكنية والده ، احد الأئمة في القراءات والعربية . وكان يقال عنه أن عبد الله كان اعلم أهل البصرة ،وأعقلهم ، ففرع النحو وقاسه ، وتكلم في الهمز حتى عمل فيه كتاب مما أملاه ، وكان رئيس الناس وواحدهم(95) .

وكان أبو بحر إماما في النحو واللغة(96) ، وهو أول من بعج النحو ، ومد القياس(97) ، وشرح العلل .

(31/1)

قال ابن سلام : سمعت أبي يسأل يونس عن ابن أبي إسحاق وعلمه ، فقال : هو والبحر سواء ، أي هو الغاية(98) قال : فأين علمه من علم الناس اليوم .

وقال أبو البركات الانباري(99) : وكان ملماً بالعربية والقراءة إماما فيهما ، وكان شديد التجريد للقياس ، ويقال انه كان اشد تجريداً من أبي عمرو بن العلاء وكان أبي عمرو بن العلاء أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها ، وغريبها .

اخذ القراءة عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم ، وروى عن أبيه عن جده ، عن علي(100) . كما كان عبد الله بن أبي إسحاق من تلامذة عنبسة بن معدان ، وهو من تلامذة أبي الأسود الدؤلي واضع النحو(101) .

****

(94) انظر ترجمة في : أخبار النحويين البصريين 19 ، ومراتب النحويين 31 ، ونزهة الالباء 226 ، وطبقات الزبيدي 31 ، والفهرست 30 ، والنجوم الزاهرة 1 \ 303 ، والخزانة 1 \ 237 ، والكامل لأبن الأثير 5 \ 163 ، والبغية 2 \ 42 .

(95) مراتب النحويين 31 .

(96) النجوم الزاهرة 1 \ 303 .

(97) طبقات الزبيدي 31 .
(98) طبقات ابن سلام 6 .
(99) نزهة الالباء 26 .
(100) مراتب النحويين 33 .
(101) بغية الوعاة 2 \ 42 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 31 .
تلمذ له عيسى بن عمر الثقفي ، ويونس بن حبيب ، وأبو الخطاب الاخفش . كما اخذ النحو عنه أبو عمرو العلاء(102) .
توفي عبد الله بن أبي إسحاق سنة سبعة عشر ومائة ، وهو ابن ثمان وثمانين سنة ، وقد صلى عليه بلال بن أبي بردة(103) . وعد ابن الأثير(104) وفاته ضمن حوادث سنة سبع وعشرون ومائة ، ووافقه عليها صاحب النجوم الزاهرة(105) .
وقد كان يوم وفاة قتادة بن دعامة فشيع الأدباء والأشراف جنازة ابن أبي إسحاق ، وشيع النساك جنازة بن دعامة(106) .

(32/1)

ويتضح من أقوال العلماء والمؤرخين أن الحضرمي كان على جانب كبير من المعرفة في اللغة والنحو ، فهو إمام عصره دون شك ، وعلم من أعلام المدرسة البصرية في التجريد للقياس ، فقد كان شديداً فيه كما ذكرنا ، وعده السيرافي في الطبقة الأولى من النحويين البصريين .
الحضرمي والفرزدق
روى أبو عمرو بن العلاء أن ابن أبي إسحاق سمع الفرزدق ينشد :
وعض زمان يابن مروان يدع من المال ألا مسحتاً أو iiمجلف
فقال له ابن أبي إسحاق : على أي شيء ترفع أو مجلف ؟ فقال : على ما يسوؤك وينوؤك .
قال أبو عمرو : فقلت للفرزدق : أصبت وهو جائز على المعنى ، أي انه لم يبق سواه(107) .
****

(102) الخزانة 1 \ 237 .

(103) الخزانة 1 \ 237 .
(104) الكامل 4 \ 292 .
(105) النجوم الزاهرة 1 \ 303 .
(106) أنباء الرواة 2 \ 108 .
(107) الخزانة 1 \ 237 .

ويذكر أن الفرزدق قال لأبن إسحاق بعد أن عاب عليه شعره ، وخطأ فيه : والله لأهجونك بيت يكون شاهداً على السنة النحويين أبدا ، فهجاه بهذا البيت :
فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى iiمواليأً
فقال له ابن أبي إسحاق ولقد لحنت أيضا في قولك مولى موالياً ، وكان ينبغي أن تقول (موالى موالٍ)
.
أما قول الفرزدق بقصيدته التي يمدح فيها يزيد بن عبد الملك :
مستقبلين شمال الشام iiتضربنا بحاصب كنديف القطن iiمنشور
على عمائمنا تلقى iiوارحلنا على زواحف تزجى مخها رير
فقد عاب الحضرمي لخفض البيت الأول ورفع الثاني ، وألح عليه ، فغيره الفرزدق وقال :
على زواحف تزجيها محاسير(108)
وفي هذا يظهر ولع أبي إسحاق بالقياس الذي هو (حمل العبارة أو الظاهرة على المطرد الكثير في لسان العرب وما خالفه فهو خطأ . هذا قياسه في النحو)(109) .

ولأبن إسحاق شهرة معروفه في الأوساط العلمية خلال الحقبة التي رافقت نشوء النحو . كما أن آراءه في اللغة والنحو ، ومساجلاته ، ومناظراته ، ومؤاخذاته على الشعراء وخاصة الفرزدق هي الأخرى ليست خافيه على احد .
تشير أكثر المصادر التي ترجمت له انه كان يلتقي دائماً بأبي عمرو بن العلاء وكان بلال بن أبي بردة جمع بين أبي إسحاق وأبي عمرو بن العلاء بالبصرة . وهو يومئذ والٍ عليها . وهو أول لقاء يتم بينهما

أيام خالد بن عبد الله ألقسري في

****

(108) أخبار النحويين البصريين 21 .

(109) المدارس النحوية . د . خديجة الحديثي ص 68 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 33 .

خلافة هشام بن عبد الملك ، قال ابن عمرو : فغلبني ابن أبي إسحاق بالهمز يومئذ فنظرت فيه بعد ذلك وبالغت(110)

وعلم الحضرمي في اللغة مشهود ومعروف غير أن ما وصل ألينا منه لا يمثل منهجاً متفرداً ، ولا علماً متميزاً ، سوى أشتات هنا وهناك ، منها قول ابن سلام مخاطباً يونس بن حبيب : هل سمعت من ابن أبي إسحاق شيئاً ؟ .

قال : نعم ، فقال ابن سلام : هل يقول احد (الصويق) يعني (السويق) قال : نعم عمرو بن تميم تقولها ، وما تريد إلى هذا ؟ عليك بباب من النحو يطرد وينقاس .

الحضرمي والقياس

القياس هو حمل مجهول على معلوم ، وهو لدى القدماء الأساس الذي نبني عليه كل ما نستطيع من قواعد في اللغة ، أو صيغ في كلماتها ، أو دلالات في بعض ألفاظها(111) .

وقد اختلفت علماء المدرستين في الأخذ بالقياس ، فالبصريين لا يقيسون على الشاهد الواحد ، والكوفيون يعتدون بالشاهد المنفرد أو الشاهدين .

أن بعض المحدثين يرون في توجيه الحضرمي نحو القياس أمر لافت للنظر إلى وقوف طائفة من النحاة موقفاً لا يهتم بالآثار المسموعة عند العرب قدر اهتمامهم بالقياس(112) .

(34/1)

وما ذكر عن دور ابن أبي إسحاق في القياس يعين في دراسة القياس في اللغة من حيث المنشأ والتطور حيث كان لعبد الله بن أبي إسحاق دور بالغ الأهمية في النحو العربي ، لكنه دور المسرف فيه وليس دور المبتكر له كما يقول الدكتور علي

****

(110) طبقات النحويين واللغويين 31 .

(111) من أسرار اللغة 9 .

(112) انظر : يونس النحوي ص 79 وما بعدها .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 34 .

أبو المكارم(113)

أن عبارة (أول من فرع النحو وبعجه)(114) و (مد القياس والعلل) ذات أهمية كبيرة لإعطاء فكرة واضحة عن أبعاد فكرة اقتران نشأة القياس النحوي بالحضرمي . فالقياس سابق له ، غير انه أسرف فيه وبالغ .

أن دراسة أي مصطلح نحوي يحتاج إلى تتبع استقصاء للنشأة والتطور ، ولما قرنت نشأة النحو بأبي الأسود الدؤلي فأن حقيقة القياس لا تبعد عن عصره بل لعلها وجدت مع ظهور هذا العلم حتى عهد عبد الله بن أبي إسحاق حيث كان شديد التجريد للقياس (فإنما يدل القياس على أن منهجه في دراسة الظواهر اللغوية هو تحديد الظواهر المطردة واعتبارها مقاييس لا ينبغي الخروج عليها ، وهذا الفهم هو ما يؤيده ابن أبي إسحاق نفسه بقوله : ما يطرد وينقاس أي ما يتبع في النصوص حتى انه ليفرض . باطراده . مراعاته والتزامه ، فيصبح بذلك مقياساً للصحة والخطأ)(115) .

فأبن أبي إسحاق حينما يقف عند الظاهرة اللغوية تتحدد وقفته عند الظاهرة المطردة يتمكن من القياس عليها .

مناظراته

استهوت مجالس العلم عدداً من العلماء ، وكانت نافعة ألهبت حماسة الجمهور ، وشدهم إلى حلبة التنافس . وكان الرعيل الأول من أبناء مدرسة البصرة ميالين للمناقشة والمنافسة . ولعل عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي من الأوائل الذين تباروا فيها .

ذكر الزجاجي(116) أن الفرزدق حظر مجلس ابن أبي إسحاق فقال :

****

(113) أصول التفكير النحوي 12

(114) أنباء الرواة 2 \ 105 ، وانظر كذلك : مراتب النحويين وطبقات الشعراء

(115) أصول التفكير النحوي 12 . 13

(116) مجالس العلماء 85 . 86

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 35 .
كيف تنشد هذا البيت :
وعينان قال الله كوني iiفكانتا فعولان بالألباب ماتفعل الخمر
فقال الفرزدق : كذا انشده . فقال ابن أبي إسحاق الحضرمي : ما كان عليك لو قلت فعولين ؟
فقال الفرزدق : لو شئت أن أسبح لسبحت . ونهض ، فلم يعرف احد في المجلس قوله : (لو شئت أن أسبح لسبحت) . فقال ابن أبي إسحاق : لو قال فعولين لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما ، ولكنه أراد : هما يفعلان بالألباب ما فعل الخمر .
وقال ابن الإعرابي : فعولين فمن قال فعولان جعله نعتاً للعينين ، وجعل (كانتا) مكتفياً لا يحتاج إلى فعل فيكون مثل قولك للشيء تمدحه : قال الله كن فكان . هذا قول الأصمعي وغيره ممن قال فعولين نصبه من مكانين ، ينصب فعولين على فعل كانتا ، أي فكانتا فعولين .
هذا قول ابن الإعرابي . وغيره يقول : يجوز أن ينصب فعولين على القطع من طريق التمام ، (كونا فكانتا) فتم الكلام فأخرجت هذا قطعاً .
أن شخصية ابن أبي إسحاق الحضرمي في المناظرات النحوية واللغوية شخصية متميزة ، فهو غير منحاز إلى احد غير المعرفة الحقة . كما انه لا يداجي ولا يرائي ، ولا يخاف صولة الملوك إذا صالوا ، والولاة إذا جاروا به . ومن أطراف ما رواه الزجاجي(117) عنه قال :

(36/1)

لاقى بلال بن أبي بردة عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي في حرف من القرآن ، قال بلال (بملكنا) بفتح الميم ، وقال ابن أبي إسحاق (بملكنا) بالضم – متراضياً بأبي عمرو ، فوجه بلال إليه فسأله أبو عمرو عما أرده له ، فعرف ، فدخل وقد عرف قول بلال ، فسأله بلال فأجازهما ، وفضل قول بلال ، فقال له ابن أبي إسحاق : أما قرأنا على مجاهد (بملكنا) ؟ – بالضم – فقال له أبو عمرو : أخبرت بما عندي . فوصله بلال . فلما خرج قال لعبد الله بن أبي إسحاق : والله لو
****

(117) مجالس العلماء 241 .

أخطأت الملوك لصوبنا خطأهم فكيف أذا أصابوا ؟ أن منازعة الملوك تضغنهم .
من آرائه في النحو والصرف
التحذير
قال سيبويه(118) : ولو قلت إياك الأسد ، تريد من الأسد لم يجز ، كما جاز في (أن) إلا أنهم زعموا أن ابن أبي إسحاق أجاز هذا البيت في الشعر :
إياك إياك المراء فأنه إلى الشر دعاء وللشر جالب
كأنه قال : إياك ، ثم اضمر بعد إياك فعلاً آخر فقال : اتق المراء . وقال الخليل : لو أن رجلاً قال : إياك نفسك لم أعنفه ، لان هذه الكاف مجروره .
في النعت
زعم يونس بن حبيب لم يرفع شيئاً من الترحم على إضمار شيء يرفع ، ولكنه أن قال : ضربته لم يقل أبدا إلا المسكين ـ بالنعت ـ يحمله على الفعل . وكذلك مررت به المسكين ـ بالجر ـ يحمل على الرفع ، والجر على الجر ، والنصب على النصب . ويزعم أن الرفع الذي فسرنا خطأ ، وهو قول الخليل وابن أبي إسحاق(119) .
الممنوع من الصرف
قال سيبويه(120) : فأن سميت المؤنث لعمرو أو زيد ، لم يجز الصرف ، هذا قول ابن أبي إسحاق ، وأبي عمرو فيما حدثنا يونس ، وهو القياس لأن المؤنث اشد
****
(118) الكتاب 4 \ 443 .
(119) الكتاب 2 \ 77 .
(120) المصدر نفسه .

ملائمة للمؤنث والأصل عندهم أن يسمي المؤنث بالمؤنث ، كما أن أصل تسمية المذكر بالمذكر .

نماذج من قرائه :-

1 . الآية (يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين)(122) قرأها بالنصب .

2 . (الزاني والزانية)(123) و (السارق والسارقة)(124) قرأها بالنصب خلافاً للقراء .

3 . (فإذا برق البصر)(125) قرأها بالفتح . وكان أبو عمرو بن العلاء ينكر ذلك .

4 . (هذه عصي أتوكأ عليها)(126) قرأها بالإمالة . وهي لغة طيء .

5 . (وما فعلوه إلا قليلاً منهم)(127) قرأها أبي وابن أبي إسحاق وابن عامر وعيسى بن عمر ، وقراءة الجمهور بالرفع .

6 . قرأ لفظة (خاف) بالإمالة في خمس آيات من القرآن الكريم (128) .

يحيى بن يعمر : (ت 129 هـ) (129)

هو أبو سليمان العدواني من عدوان بن قيس بن عيلان الوشقي البصري

****

(122) الأنعام 27 .

(123) النور 24 .

(124) المائدة 38 .

(125) القيامة 7 .

(126) طه 18 .

(127) النساء 66 .

(128) البقرة 28 ، وهود 103 ، وإبراهيم 14 ، والرحمن 46 ، والنازعات 40 .

(129) انظر في ترجمة : طبقات ابن سلام 13 ، ونزهة الالباء 24-26 ، وأخبار النحويين البصريين 17 ، وأنباه الرواة 4 \ 8 ، ووفيات الأعيان 2 \ 226 ، ومعجم الأدباء 20 \ 42 ، ومن مشاهير أعلام البصرة 74 \ 77 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 38 .

وكان عداده في بني ليث ، وكان مؤمناً يروي عنه الفقه(130) . اخذ النحو والقراءة من أبي الأسود ، وروى عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما .

قرأ عليه القرآن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ولي القضاء وعاش قيها حياته .

وقال عن القفطي(131) : وكان عالماً بالقرآن والنحو ولغات العرب . وهو الذي أضاف إلى كتاب أستاذه أبي الأسود ما لم يدخله في أبواب النحو ، قال السيرافي(132) : (ويقال : أن أبا الأسود لما وضع باب الفعل والمفعول ، زاد في ذلك الكتاب رجل من بني ليث أبوابا ، ثم نظر فإذا في كلام العرب مالا يدخل فيه ، فأقصر عنه . فيمكن أم يكون الرجل الذي من بني ليث يحيى بن يعمر ، إذ كان عداده في بني ليث) .

وقصته مع الحجاج مشهورة ومعروفة ، فقد ذكر أن الحجاج بن يوسف قال ليحيى بن يعمر ، أتجدني ألحن ؟ قال : الأمير أفصح من ذاك . قال : عزمت عليك لتخبرني ، وكانوا يعظمون عزائم الأمراء ، فقال يحيى بن يعمر ، نعم في كتاب الله ، قال : ذاك أشنع له . ففي أي شيء من كتاب الله ؟ قال : قرأت : (قل أن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله) فترفع أحب وهو منصوب ، فقال : إذن لا تسمعني ألحن بعدها ، فنفاه إلى خراسان(133) .

واهتمام يحيى بالقرآن وتتبعه لمسائل النحو ، ومعرفته بدقائق العربية ، وأسرارها جعلته يفحم الحجاج من خلال تنبيهه إلى الخطأ النحوي في قراءته الآية المذكورة .

وهو في ذلك كله يتلمس قضايا العربية ويطبقها على النص القرآني ، وهو

****

(130) طبقات الزبيدي 27 ، ومعجم الأدباء 20 \ 42 .

(131) أنباء الرواة 4 \ 20 .

(132) أخبار النحويين البصريين 17 .

(133) أخبار النحويين البصريين 17 \ 18 .

احد الذين قاموا بتنقيط المصحف .

ويقرن يحيى الشاهد القرآني بالشاهد الشعري مما يقوي وسائل الاحتجاج لديه ، ويعطينا قدراً من اهتمام الرجل في وقت مبكر بالدراسات اللغوية ومعرفته بالمصطلح النحوي ، وإسهامه في تطور الدرس النحوي .

ومن أشهر قراءاته

1 . قرأ يحيى (ردت إلينا) بكسر الراء ، واستدل على ذلك بقول ذي الرمة :
دنا البين من مي فردت iiجمالها وهاج الهوى تقويضها واحتمالها
وهي لغة بني ضبة(134) .
2 . قرأ (إلا تقسطوا)(135) بفتح التاء ، قال ابن مجاهد : (ولا أصل له) .
3 . ومن قراءاته حذف الضمير العائد على الموصول في الآية (تماماً على الذي أحسن) .
4 . قراءته الآية (من قُبُلُ ودُبُرُ) بثلاث ضمات من غير تنوين(136) .
5_ ومن ذلك قراءاته (ما سألتم) بكسر السين (137) . وهو من غريب تركيب اللغة .
حماد بن سلمة (138) : (ت 169 هـ)
هو الإمام أبو سلمة البصري ، شيخ أهل البصرة في الحديث والعربية
****

(134) المحتسب 1 \ 345 ، 346
(135) المحتسب 1 \ 180 ، 181
(136) المحتسب 2 \ 38
(137) المحتسب 1 \ 98 ، 90
(138) انظر ترجمة في : حلية الأولياء 6 \ 249 ، ونزهة الالباء 42 ، وميزان الاعتدال 1 \ 277 ، وتهذيب التهذيب 3 \ 11 ، وطبقات الزبيدي 51 ، وأخبار النحويين البصريين 242 ، ومراتب النحويين 266 ، والمعارف 503 ، ومعجم الأدباء 1 \ 254 ، وبغية الوعاة 1 \ 548 ، والأعلام ط4 2 \ 272

والفقه(139) .

اخذ عن يونس بن حبيب النحوي ، وسئل يونس أيما أسن أنت أم حماد ؟ فقال ؟ حماد أسن مني ، ومنه تعلمت العربية(140) . كما قال عن يونس : (أول من تعلمت منه النحو حماد بن سلمة)(141) .

ونحن إذ نؤرخ لهذه المرحلة من تاريخ النحو العربي ، ونشأة الدراسات النحوية في البصرة لابد أن نقول : أن حماد بن سلمة كان واحداً من الذين أولعوا بالنحو غير انه كان إماماً في الحديث ، فتاريخ النحو لا يتخطاه ، لما له من فضل على رواد النشأة .

وحماد لم يكن إماما في الحديث إلا بعد تعلمه النحو ، فقد قال : مثل الذي يطلب الحديث ، ولا يعرف النحو مثل الحمار عليه مخلاة ولا شعير فيها)(142) .

واخذ سيبويه عن حماد وكان سبباً في تعلم سيبويه النحو ، فقد كان سيبويه يستملي على حماد يوماً فقال حماد : قال رسول الله (ص) ما احد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء ، فقال حماد : لحنت يا سيبويه ، فقال : لا جرم ، لأطلبن علماً لا تلحنني فيه أبدا ، ثم لزم الخليل(143) .
وقد مدحه اليزيدي في قصيدته التي مح فيها آخرين من نحاة البصرة بقوله (144) :
يا طالب النحو إلا فأبكه بعد أبي عمرو iiوحماد
****

(139) طبقات المفسرين 244 ، وطبقات ابن سعد 7 \ 231 .
(140) نزهة الالباء 42 .
(141) طبقات النحويين واللغويين .
(142) أنباء الرواة 1 \ 329 .
(143) بغية الوعاة .
(144) أخبار النحويين البصريين 32 \ 33 .

وبن أبي إسحاق في iiعلمه والزين في مشهد iiوالنادي
عيسى واشياه لعيسى وهل يأتي لهم دهر iiبأنداد
هيهات إلا قائلاً عنهم أرسوا له الاصل iiبأرتاد
فهو لمنهاجهم iiسالك لفضلهم ليس iiبحجاد
ويونس النحوي لاتنه ولا خليلاً حية iiالوادي
وقل لمن يطلب علماً iiألا ناد بأعلى شرف iiناد
بأضيعة النحو به مُغربُ عنقاء اودت ذات iiاصعاد
أفسده قومُ وأزروا iiبه من بين اغتام وأوغاد

ففيها ذكر لأبي عمرو بن العلاء ، حماد بن سلمة ، وعبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، وعيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب ، والخليل بن احمد الفراهيدي ، ممن ارسوا قواعد الدرس النحوي في البصرة . كما فيها هجاء ألكسائي وأضاربه ممن غربوا بالنحو كل مغرب ، وافسدوا .

حكى أبو الحسن الاخفش عن يونس بن حبيب أن حماداً حدثه ناساً من العرب يقولون في النسب إلى (شية) شيوي ، والوجه فيه غير ذلك ، وهؤلاء كأنهم قلبوا موضع الفاء فوضعوه في موضع اللام(145) . على حين يرى سيبويه أن النسب إلى شية وشوي ، وأبو الحسن الاخفش يذهب إلى أنها وشيي .

عيسى بن عمر الثقفي 149 هـ

(41/1)

هو أبو عمرو وقيل أبو سليمان(146) عيسى بن عمر الثقفي ، النحوي البصري ، ونزل في ثقيف فنسب إليهم(147) . وقيل كان من ثقيف ، وهو من ولد الحكم بن عبد الله الأعرج الذي روى الحديث(148) .

****

(145) نزهة الالباء 43 .

(146) انظر : نزهة الالباء 21 .

(147) وفيات الأعيان 3 \ 145 .

(148) أنباه الرواة 2 \ 374 .

اخذ عيسى عن أبي عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، وروى عن الحسن البصري ، والعجاج بن رؤبة ، وعبد الله بن كثير ، وابن محيصن .

روى عن كل من الخليل والأصمعي ، كما اخذ عن سيبويه(149) . ومن معاصريه الذين أفادوا منه يونس بن حبيب ، وأبو الخطاب الاخفش ، وأبو زيد الأنصاري ، وأبو جعفر الرؤاسي ، وروى القراءات عنه احمد بن موسى اللؤلؤي ، وهرون بن موسى النحوي ، وسهل بن يوسف ، وعبيد بن عقيل ، وشجاع بن أبي نصر(150) .

نشأته

وحياة عيسى بن عمر لم تسعفنا المصادر في إعطاء صورة مكتملة الجوانب عن نشأته وثقافته الأولى ، فلم يحدد تاريخ مولده ، كما لم نحصل على معلومات عن أسرته . والتبدلات الاجتماعية في اخريات العصر الأموي .

وما عرف عن اهتمام الرجل بالنحو واللغة ، ودرايته بأساليب العربية ، أمور ليست مستبعدة ، ولا مستغربة منه ، فلم يكن النحو في عصره مستقلاً عن العلوم اللغوية . ومما لاشك فيه أن امتزاج النحو باللغة في دراسات المتقدمين شيء طبيعي ، ولم يتم استقلال البحث اللغوي عن الدراسات النحوية إلا في مرحلة متأخرة .

وما قيل عن كتابي عيسى (الإكمال) و (الجامع) من اتصاف بالنحو لا يفصلهما من الدراسات اللغوية التي نشأت آنذاك وان لم نملك الدليل المادي على ذلك ، لضياع مصنفات عيسى .

(42/1)

عاش عيسى في مدينة البصرة مركز الثقافة العربية الأصيلة ومنبع الدراسات اللغوية الجادة إذ التقى هنا بأبي عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن أبي إسحاق والحسن

****

(149) بغية الوعاة 2 \ 229 ووفيات الأعيان 3 \ 155 .

(150) وفيات الأعيان 3 \ 154 ، وانظر دراستنا عنه في كتاب (من مشاهير أعلام البصرة ص 78 . 91) .

البصري والعجاج وغيرهم كما التقى به الخليل وسيبويه والأصمعي .

وقد شملت دراسته القراءات القرآنية والتفسير واللغة والحديث والنحو ورواية الشعر فقده ، وقد عرفنا ناقداً لشعر النابغة(151) ناظراً في شعر الفرزدق(152) ، وذي الرمة(153) وغيرهم .

ولولعه في القراءات اثر محمود في أحاطته بها ، وربما يكون حفظه للقرآن الكريم قد عزز من ملكة النقد والتوجيه عنده ، وقوى براعته في العرض وإدراك الفروق بينها ، وزاد من دقته في التحليل والمناقشة .

اغلب من أرخ لعيسى ذكر انه كان فصيحاً ذا تعقيد في كلامه ، يميل إلى الغريب فيه(154) .
كما عرف بالتزامه الإعراب في حديثه اليومي(155) . حتى قيل عنه (انه كان لا يدع الإعراب لشيء . بل أن أبا عبيدة معمر بن المثنى كان يحتج بكلامه في اللغة وشرح ألفاظ القرآن ، فقد فسر (سواء) من قوله تعالى (سواء الجحيم) بالوسط ، ثم قال : (سمعت عيسى بن عمر يقول : كنت وأنا شاب اقصد بالليل فأكتب حتى ينقطع سوائي ، أي وسطي)(156) .
وعد السيرافي في طبقة أبي عمرو بن العلاء(157) . كما فعل ذلك القفطي(158)بعد أن قال عنه : (كان من قراء أهل البصرة ونحاتها وكان عالماً) . ولم ينسبه يحيى بن المبارك اليزيدي(159) حينما أشاد بذكر أساتذة النحو : .
****

(151) أنباه الرواة 2 \ 375 .
(152) انظر مثلاً (الكامل) للمبرد 120 . 121 .

---

(153) انظر : أضداد الانباري 184 والخصائص 2 \ 467 .
(154) انظر مثلاً : أخبار النحويين البصريين 25 ، والمعارف 540 ، والمزهر 2 \ 399 .
(155) المفصل في تاريخ النحو العربي 1 \ 159 .
(156) بحار القرآن 2 \ 170 .
(157) أخبار النحويين البصريين 25 .
(158) أنباه الرواة 2 \ 375 .
(159) نزهة الالباء 23 .
دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 44 .
يا طالب النحو إلا iiفابكه بعد أبي عمرو iiوحماد
وابن أبي إسحاق في علمه والزين في المشهد iiوالناد
عيسى وأشباه لعسير iiوها يأتي لهم دهر iiبأنداد
ويونس النحوي لاتنسه ولا خليلاً حية iiالوادي
ونعته يحيى بن معين بالثقة(160) . ووصفه ياقوت(161) (بأنه عالم بالنحو والعربية والقراءة مشهور

بذلك) . وذكر مثل هذا عنه الانباري(162) . أما أبو الطيب اللغوي(163) فقد وصفه بالفصاحة

.

وفاته

مات عيسى بن عمر سنة تسع وأربعين ومائه للهجرة في خلافة المنصور ، قبل أبي عمرو بن العلاء بخمس أو ست سنين(164) وهو شبه إجماع عند المؤرخين في تحديد سنة وفاته ، سوى السيوطي(165) الذي حدد وفاته بعام 150 هـ ، وهي رواية لم يذكر سنده فيها .

وكان سبب وفاته ما انتابه من آلام وسقام نتيجة إيذاء عامل ابن هيرة أباه .

مصنفاته

ذكر القفطي(166) أن لعيسى بن عمر نيفاً وسبعين وصنفاً ، عدمت

****

(160) أنباه الرواة 2 \ 376 .

(161) معجم الأدباء 6 \ 100 .

(162) نزهة الالباء 21 والإنصاف 1 \ 164 .

(163) مراتب النحويين 21 .

(164) معجم الأدباء 4 \ 100 ، أنباء الرواة 2 \ 377 ، ووفيات الأعيان 3 \ 156 والكامل لأبن الأثير 5 \ 228 ، والفهرست 41 ، ونزهة الالباء 23 ، والمعارف 540 والبلاغة 181 .

(165) المزهر 2 \ 461 والبغية 2 \ 228 .

(166) أنباه الرواة 2 \ 375 .

ومنها تصنيفان كبيران احدهما (الإكمال) والأخر (الجامع) ويقال الجامع هو كتاب سيبويه زاد فيه وحشاه . وسأل مشايخه عن مسائل منه أشكلت عليه فذكرت وان أعدلها . وإذ طلب سيبويه إلى الخليل بن احمد ليقرأها عليه .

بطل النحو جميعاً iiكله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك (إكمال) وهذا (جامع) وهما للناس شمس iiوقمر
فأشار إلى (الجامع) بما يشار به إلى الحاضر وهي لفظة (هذا) . وأضاف القفطي(167) ويقال أن أبا الأسود لم يضع من النحو إلا باب الفاعل والمفعول فقط ، وان عيسى بن عمر وضع كتابه على الأكثر وبوبه ، وهذبه ، وسمّى ما شذّ عن الأكثر لغات .
وذكر الرواية السالفة نفسها ابن خلكان(168) بقوله : أن سيبويه اخذ هذا الكتاب – أي الجامع – وبسطه وحشى عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل بالبحث والتحشية نسب إليه ، وهو كتاب سيبويه المشهور . ثم ذكر قصة سيبويه والخليل قائلاً : أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر ، ولازم الخليل بن احمد سأله الخليل عن مصنفات عيسى بن عمر فقال سيبويه :– صنف نيفاً وسبعين مصنفاً في النحو وان بعض أهل اليسار جمعها ، واتت عنده عليها آفة فذهبت بها ، ولم يبق منها في الوجود سوى كتابين احدهما اسمه (الإكمال) وهو بأرض فارس عند فلان ، وآلا خر (الجامع) وهو هذا الكتاب الذي اشتغل فيه ، وأسألك عن غوامضه ، فأطرق الخليل ساعة ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى وانشد البيتين(169) .
أما ياقوت(170) فقد قال عن الكتابين : (وهذان كتابان ما علمنا أحدا
****

(167) المصدر نفسه .
(168) وفيات الأعيان 3 \ 155 .
(169) المصدر نفسه .
(170) معجم الأدباء 6 \ 101 .

رآهما ولا عرفهما غير أن أبا الطيب اللغوي(171) ذكر في كتابه إنهما مبسوط ومختصر ، وذكر عن المبرد قال : قرأت أوراقا من احد كتابي عيسى بن عمر) .

وذكر ابن النديم(172) الكتابين غير انه سمي (الإكمال) ب (المكمل) ثم قال : (وقد فقد الناس هذين الكتابين منذ المدة الطويلة ولم تقع على احد علمناه ولأخبر احد انه رآهما) .
ويحتمل أن يكون ابن النديم وياقوت استقيا خبرهما من رواية السيرافي(173) التي جاء فيها : (وهذان الكتابان ما وقع إلينا ، ولا رأيت أحدا يذكر انه رآهما) .
ومثل ذلك قال أبو البركات الانباري(174) ، كما ذكر السيوطي(175) قول المبرد وزاد فيه قوله : (وكانا كالإشارة إلى الأصول) فهما إذن ولم يكونا الكتابين الوحيدين الذين وصلا إلى علم المتقدمين من علماء النحو واللغة ، حتى جاء عيسى بن عمر وصنف كتابيه معتمداً في ذلك على الأصول التي سبقه فيها غيره .
يتضح من تلك الأقوال أن كتب عيسى بن عمر لم يستفد منها الدارسون للنحو واللغة عدا الخليل وسيبويه إذ لم نجد لها أثرا بعد ذلك ، كما إننا لا نملك من الدلائل الأكيدة ما يجعلنا نقرر أن كتاب سيبويه هو (الجامع) لأننا لا نعرف عن كتابي عيسى بن عمر إلا اسميهما وبعض آراء عمر التي نقلها سيبويه .
وعن هذه الملاحظة نقرر أن سيبويه اعتمد كتاب عيسى أساسا في تصنيف كتابه فقد صرح بالنقل عنه ، وان كانت أقوال عيسى النحوية المصرح بها في

****

(171) مراتب النحويين 23 .

(172) الفهرست 41 .

(173) أخبار النحويين البصريين 25 .

(174) نزهة الالباء 23 .

(175) المزهر 2 \ 399 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 47 .

الكتاب لم تتجاوز سبعة أقوال(176) . أما روايته عنه فقد بلغت عشرين مره (177) .

وقد فند الدكتور مهدي المخزومي(178) المزاعم التي تقول أن (الجامع) هو نفسه كتاب سيبويه بقوله : (ولو كان للجامع وجود في غير أذهان الزاعمين لتحدث عنه الدارسون من أصحاب الخليل

أو أصحاب سيبويه ، ولو كان (الجامع) هو أساس (الكتاب) لما كانت لرواية سيبويه عن عيسى في (الكتاب) وجه) . ونحن لم نسلم بأن عيسى بن عمر ظهر في شخصية سيبويه في الكتاب إلا إننا لا ننكر انه كان إماما مقدماً في النحو واللغة غير انه لم يحالفه الحظ في الخلود عن طريق المصنفات كما حالف غيره في مصنفاتهم ، ومع هذا فقد نال إعجاب المؤرخين والنحاة الأوائل الذين احتذوا حذوه في القياس .

استعماله الغريب

اغلب من تحدث عن عيسى ذكر انه (كان صاحب تقعير في كلامه ، واستعماله للغريب فيه)(179) فقد كان يعدل عن سهل الألفاظ إلى الوحشي والغريب . فمما ذكره القفطي وابن خلكان(180) : (سقط عيسى بن عمر عن حمار له ، واجتمع عليه الناس ، فقال : مالكم تكأكأتم علي تكأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني) . ويروي انه بينما وقع ودار الناس حوله وهم يقولون ! مصروع ، مصروع ، فبين قارئ ومعوذ ، فلما أفاق من غشيته نظر إلى ازدحامهم فقال هذه المقالة ، فقال بعض الحاضرين أن جنيته تتكلم بالهندية .

****

(176) اعتمدنا في هذا الإحصاء على ما ذكره استأذنا الدكتور مهدي المخزومي في كتابه (عبقري من البصرة) ص 81 .

(177) أشار إلى ذلك استأذنا المرحوم عل النجدي ناصف في كتابه (سيبويه إمام النحاة) ص 91 .

(178) عبقري من البصرة 81 .

(179) انظر مثلاً : أنباه الرواة 2 \ 376 ، ووفيات الأعيان 3 \ 154 ، ومعجم الأدباء 6 \ 101 ، والمعارف 540 والبغية 2 \ 238 .

(180) انظر : وفيات الأعيان 3 \ 156 وأنباء الرواة 2 \ 377 .

وحدث عنه الأصمعي قائلاً : لقي أبو عمرو بن العلاء عيسى بن عمر فقال له كيف حالك ؟ قال ؟ ما تزداد إلا مثالة ! قال : فما هذه المعيوراء التي تركض ؟ وما هي الحمير التي تركب .

يقال : معيوراء ، ومشيوفاء ، ومعبوداء(181) .

وعناية عيسى بالغريب تظهر في اهتمامه بالرواية وذكر سنده فيها ، وفي الأغلب يكثر من الاستشهاد بالشعر الذي يجد فيه ضالته من الغريب ، ونسبته إلى الشعراء الذين التقى بهم ، وإيضاح ما قصد من بعض المفردات في أشعار المتقدمين .

ذكر المبرد(182) : (وأنشدني التوزي عن الأصمعي :

من ذا رسول ناصح فمبلغ عني عليه غير قبل الكاذب

إني غرضت إلى تناصف iiوجهها غرض المحب إلى الحبيب الغائب

قال الأصمعي : سألت عيسى بن عمر عن التناصف فقال : هو أن تكون العينان مثل الأنف في الحسن) .

وكثيراً ما نجد اللغويون في دراساتهم اللغوية بما نسب من قول أو شعر إلى سماع عيسى بن عمر عن العرب ، أو اجتهاده في روايته ، فقد ذكر ابن السكيت(183) نقلاً عن أبي سلام الجمحي قال : قال أبو عمرو بن العلاء : الدولة ـ بالضم ـ في المال ، والدولة ـ بالفتح ـ في الحرب ، قال : وقال عيسى بن عمر : كلتاهما تكون في الحرب والمال سواء .

وذكر محمد بن القاسم الانباري(184) : واليتن : الذي تخرج رجلاه قبل يديه . قال عيسى بن عمر : سئل ذو الرمة عن شيء فقال للسائل : أتعرف اليتن ؟ قال نعم . قال : فكلامك هذا يتن ، أي مقلوب .

****

(181) العقد الفريد 2 \ 486 .

(182) الفاضل 28 .

(183) إصلاح المنطق 115 .

(184) الأضداد 186 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية ـ 49 ـ

ولم يقف عيسى بن عمر عند الرواية موقف المتقبل لكل ما يقوله العرب ، دون أن يعرف وجوه

الكلام واستعمالاته ، بل نراه يسأل ويحاور ، ويتعلم ، ومن ثم ينقل الرواية كما سمعها ولهذا نحن نطمئن إلى روايته .

(48/1)

والذي يمعن النظر في شواهده واستقرائه للشعر العربي يجده محيطاً إحاطة تامة بغريبه ونوادره ، كما انه اشتق معظم آرائه النحوية واللغوية مما سمعه من العرب ، وبخاصة الشعراء ، فقد سمع أبا النجم العجلي ينشد :–

أغد لعنا في الرهان نرسله(185) .

بالغين المعجمة يريد لعنا ، فاستعان بهذا الشاهد على ورود لعل بهذه الصورة في كلام العرب .

فقد كان عارفاً بأساليب الاستعمال العربي عند القبائل ، فهو يتحرى عن الاستعمال الشائع في قبيلة أو قوم ليأخذه عنهم جاء في لسان العرب(186) : (قال أبو زيد أهل الحجاز ، وهذيل ، وأهل مكة لا ينبرون ، وقف عليها عيسى بن عمر فقال : ما أخذ من قول تميم إلا بالنبر وهم أصحاب النبر ، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا) .

من آرائه النحوية والصرفية وقراءاته

ليس لدينا أدلة نعرفها عن الأصول التي دونها في مصنفاته ، بل نقول : (تابع عيسى بن عمر بناء الأسس التي وضعها الحضرمي في تاريخ النحو العربي ، وزاد عليها ، وأضاف إليها ، وتوسعت بفضله الدائرة النحوية حتى ألمت – أو كادت – بمعظم أبواب النحو التي نجدها عند جيل سيبويه)(187)

.

ونحن لا نستبعد أن يكون نحو عيسى يميل نحو الاستقصاء وتتبع المسألة وما قيل فيها في حلقات الدرس النحوي آنذاك ، كما انه استوعب معظم أبواب النحو

****

(185) إبدال أبي الخصيب 2 \ 297 .

(186) لسان العرب 1 \ 14 .

(187) المفصل في تاريخ النحو العربي 1 \ 161 .

على ما يبدو من آرائه التي وردت في كتاب سيبويه ، والتي تضم أبواب المفعول به ، والمفعول المطلق ،والمستثنى ، والحال ، والنداء ، وأسلوب المدح والذم ، والنعت ، والممنوع من الصرف ، والهمز ، والوقوف وغيرها .

(49/1)

ونحن لا نملك إلا أن نقول انه كان صاحب قياس في العربية ، عني به عناية أستاذه الحضرمي ، (وان فكرة اصطناع القياس أداة لصنع النحو ، واصلا من أصوله قد داعبت أذهانهما)(188) .

ومن أشهر آرائه في النحو قوله في بيت الاحوص :

سلام الله يا مطر iiعليها وليس عليك يا مطر السلام

فقد قرأه (يا مطراً) يشبه بقوله (يا رجلاً) وجعله إذا نون وطال كالنكرة ، قال سيبويه(189) : (ولم نسمع عربياً يقوله ، وله وجه من القياس إذا نون وطال كالنكرة) .

كما كان يجيز أن تأتي الحال من النكرة مثل .

وكان يرفع الاسم في مثل : ادخلوا الأولُ فالأولُ . قال سيبويه: (وكان عيسى بن عمر يقول : ادخلوا الأول فالأول ، لأن معناه : ليدخل ، فحمله على المعنى) على حين ينصبه النحاة بتأويل : ادخلوا مرتين ومما نقله عن ابن دريد(191) : (ومريء تصغير مرء ، والجمع مرؤون ، أخبر بذلك عيسى بن عمر) .

أن منهج عيسى العقلي في دراسة النحو يميل إلى تفسير الظواهر الإعرابية عن طريق ربطها بالمعنى ، (فهو ينصب كل اسم فيه معنى التعظيم أو التحقير)(192) من ذلك ما ذكره أبو عبيدة(193) في نصبه (حمالة الحطب) لكونه

****

(188) مدرسة الكوفة 46 .

(189) سيبويه 2 \ 212 .

(190) سيبويه 1 \ 398 .

(191) الاشتقاق 383 .

(192) المفصل في تاريخ النحو العربي 1 \ 167 .

(193) مجاز القرآن 2 \ 21 .

ذما لها . كما قرأ النصب : (الزاني والزانية فاجلدوا) .
ومما يندرج ضمن اقيسته قراءته الآية الكريمة . (يا جبال اربي معه والطير)(194) بالنصب كذلك(195)
وقد علل الدكتور شوقي ضيف(196) نزوع عيسى إلى النصب في مثل هذه الشواهد لأن عيسى (أحس في وضوح أن العرب تنزع إلى النصب أكثر مما تنزع إلى الرفع لخفته ، فجعل النصب فوق الرفع وعده الأساس) .

(50/1)

وبهذا يكون لعيسى قدماً راسخة في الدراسات النحوية التي مهدت للمرحلة القادمة مرحلة النضج واستقرار القواعد بعد تأصيلها ، ووضوح المصطلح أكثر مما كان في المرحلة السابقة .
أبو عمرو بن العلاء (154 هـ) (196أ) :
هو أبو عمرو بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحسين بن الحارث بن جلهمة بن حجر بن خزاعة بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن معد بن عدنان(196 ب) .
له أخ يقال له أبو سفيان ، وزعم النسابون أن اسميهما كنيتاهما ، كما له أخ آخر يقال له معاذ بن العلاء(197) .
اختلف في اسمه على واحد وعشرين قولاً أصحها زبان ، والبقية : جبر ، وجنيد ، وجزء ، وحميد ، وربان ، وعتبة ، وعثمان ، وعريان ، وعتيبة ، وعمار ، وعيار ،
****

(194) سبأ 10 .
(195) المدارس النحوية . شوقي ضيف 26 .
(196أ) المصدر نفسه .
(196) انظر ترجمة في :- .
(196ب) طبقات القراء 1 \ 288 ومعجم الأدباء 11 \ 156 .

(197) مراتب النحويين 33 والمزهر 2 \ 418 .

وعيينة ، وقائد ، وقبيصة ، ومحجوب ، ومحمد ، ويحيى . والمتأمل فيها يعرف بسهولة مقدار ما لحق اسمه من تصحيف وتحريف على أيدي النساخ ، فالمؤرخين .

ويبدو أن الفرزدق حينما ذكره بقوله :

هجوت زبان ثم جئت iiمعتذراً من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

قد ذكر الصحيح من تلك الأسماء ، ثم عاد فذكره مكنياً :

مازلت افتح أبوابا وأغلقها حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

أما ولادته فقد وقع فيها خلاف بين المؤرخين ، وانه ولد في مكة سنة ثمان أو خمس وستين للهجرة ، من أسرة علمية ، فقد كان هو وأخواه ممن يتحدث عنهم العلماء ويهتم بما ينقل عنهم الرواة .

وكانت نشأته في البصرة .

(51/1)

اخذ علمه عن جماعة من التابعين ، وقرأ القرآن على سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وروى عن انس بن مالك ، وأبي صالح السمان ، وعطاء ، وطائفة من علماء العصر ، ومحدثيه وفقهائه من أمثال الحسن البصري ، وعكرمة ، وغيرهم من رجال مكة والمدينة والبصرة والكوفة .

ومن تلامذته أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي ، وعبد الله بن المبارك ، وأبو عبيدة ، والأصمعي ، والخليل بن احمد ، ويونس بن حبيب ، وأبو زيد الأنصاري ، وعيسى بن عمر ، وخلف الأحمر ، وغيرهم خلق كثير .

شغفه بالعلم

روي عن أبي عمرو انه قال : (أخذت في طلب العلم قبل أن اختتن)(198) . كما قال الأصمعي :

(سمعت أبا عمرو يقول . ولم يقله أن شاء الله بغياً ولا تطاولاً . وما رأيت أحدا قط اعلم مني) .

وذكر الأصمعي كذلك انه قال : (ما سمع حماد الرواية حرفاً قط

****

(198) طبقات الزبيدي 37 .

إلا سمعته ، وكان أسن من حماد) .
توفي أبو عمرو عام 154 هـ في اصح الروايات وهو ابن ست وثمانين سنة(199) .
أبو عمرو والنحو
كان أبو عمرو احد القراء السبعة المشهورين ، كما كان نحوياً بارعاً ، وهو ممن يتشردون في القياس ، قال له بعض معاصريه : اخبرني عما وضعته مما سميته عربية أيدخل فيها كلام العرب كله ؟ فقال : لا . فقال له : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟
قال : اعمل على الأكثر ، واسمي ما خالفني لغات .
ولعل نحو أبي عمرو أكثر نضجاً من نحو الحضرمي (لأنه عاش بعد الحضرمي سبعاً وثلاثين سنة ، وهي مرحلة كافية لمن كان مثل أبي عمرو شغفاً بالعلم ، وعكوفاً عليه ، أن يصل فيها إلى أصول لم يبلغها سلفه . وان يقف فيها على ظواهر لم تتهيأ له)(200) .

أن من يتصدى لدراسة نحو أبي عمرو يجد نفسه عند مسائل متفرقة في دراسات الأقدمين ، لعدم وصولها إلينا في كتاب خاص ، كما إن ما نقل عنه لا يمثل شخصيته النحوية بجميع تفصيلات المسائل النحوية ، غير أنها تنبئ عن شخصية نحوية متكاملة . أحاطت بجميع أبواب النحو والصرف ، فالأبحاث التي أسهم فيها تمثل موضوعات الاستثناء ، والممنوع من الصرف ، والأعلام ، والأفعال الخمسة ، وضمير الفعل ، ونصب المصدر الواقع موقع الفعل ، والنسب والتصغير ، وصيغ
****

(199) المعارف 540 ، والبلاغة للفيروز آبادي 81 ، وطبقات الزبيدي 40 .
(200) المفصل في تاريخ النحو العربي 1 \ 178 .

الأفعال ، وتصريفها ، والإبدال ، والإعلال(201) . وكما نقل النحاة آراءه في بعض التراكيب ، كقولهم : أما أنت منطلقاً انطلق معك(202) .
ونراه أحيانا يصحح بصحيح آراءه في أقوال العرب الذين كانوا يجيزون ذلك الاسم في مثل : أما العبيد فذو عبيد ، لأنهم يحملونهم على المصدر . أما أبو عمرو فقد اوجب رفعه ، لأنه اسم وليس

بمصدر(203) .
وقد عني أبو عمرو بظاهرة الإعراب عناية بالغة فنراه أحيانا يربط بين الإعراب والمعنى وطوراً يستعين بقياس العربية ، أي بتقاليدها وأعرافها . من ذلك فسر النصب في قول العرب : إلا رجل أما زيداً وأما عمراً ، (لأنه حين قال : إلا رجل فهو متمن شيئاً يسأله ويريده ، فكأنه قال : اللهم اجعله زيداً أو عمراً)(204) .
وزعم يونس(205) : أن أبا عمرو كان يقول : داري من خلف دارك فرسخان . فشبه بقولك : دارك مني فرسخان ، لأن (خلف) هنا اسم ، وجعل (من) فيها بمنزلتها في الاسم ، وهذا مذهب قوي .
وكان يرى أن المنصوب في قولهم : (حبذا محمد رجلاً حال لا تمييز . كما كان يرى أن الناصب للطير في قوله تعالى : (يا جبال أوبّي معه والطير) فعل مضمر .

(53/1)

وفي الاستثناء قرأ أبو عمرو (حاشا لله) بالألف ، وقرأ باقي السبعة (حاش لله) بحذفها .
ومن آرائه
انشد أبو عمرو : وكأنها تفاحة مطيوبة
****

(201) انظر كتاب سيبويه 2 \ 311 ، 313 ، 369 ، 397 ، 3 \ 217 ، 252 ، 253 ، 293 ، 294 ، 295 ، 300 ، 347 ، 361 ، 437 ، 549 ، 551 ، 4 \ 263 ، ومجاز أبي عبيدة : 1 \ 123 ، 274 ، 287 ، 295 ، 352 ، 2 \ 119 . (202) الكتاب 3 \ 101 .
(203) الكتاب 3 \ 387 ، 389 .
(204) الكتاب 1 \ 286 .
(205) الكتاب 1 \ 417 .
دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 55 .
وذلك أن بناء اسم مفعول من الفعل الثلاثي المعتل العين نحو . مبيوع ومديون في أصله مبيوع مديون ، وهو مما رواه أبو عثمان عن الأصمعي عن أبي عمرو انه سمعه في شعر العرب .

وفي تصغير الاسم المختوم بالألف المقصورة كان أبو عمرو يقول : جبيرة فيحذفها ، ويبدل منها هاء التأنيث لتكون علامة تأنيث الاسم ، وهو يفعل ذلك في كل اسم خامسه ألف تأنيث ، ويقول : لم يجز إثباتها لأنها ساكنة ، فإذا حذفتها لم اخل الاسم من علامة تأنيث ثابتة .

وقال ابن جني في الخصائص(206) ومن ذلك أن تقع فاء (افتعل) زاياً أو دالاً أو ذالاً فتقلب تاؤه له دلاً في قولهم : ازدان ، وادعى وادكر واذدكر فيما . حكاه أبو عمرو .

من آرائه في القراءات

اهتم أبو عمرو اهتماماً كبيراً بالقراءات القرآنية ، (إذ كان هذا الاهتمام للقراءات سبباً رئيساً من أسباب انفصال الدراسات النحوية عن الدراسات القرآنية ، على الرغم من تداخل مادتها في أحيان كثيرة)(208) .

وقد رد بعض القراءات ، وخطأ أصحابها ، واتهم بعض المقرئين باللحن ، (لأنه يشك في نقلها وصحة روايتها(208) ومن قراءاته :

(54/1)

---

1 . (أن هذين لساحران) . (طه 63) ، وقد رد قراءة (أن هذان لساحران) لاتهامه بعض المقرئين بمتابعة رسم المصحف ، ويرى أن الكتابة يزاد فيها وينقص ، وينبغي إلا يؤثر ذلك في اللفظ(209) .

****

(206) الخصائص 2 \ 142 .

(207) تاريخ النحو العربي . أبو المكارم 89 .

(208) المفصل في تاريخ النحو العربي 189 .

(209) مجاز القرآن 2 \ 21 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 56 .

2 . رفض قراءة من قرأ (رب لولا أخرتني إلى اجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) . (المنافقون 10) . وقرأها (وأكون) فقد ذكر : (ذهبت الواو من الخط ، كما يكتب أبو جاد : أبجد ، هجاء (210)(

3 . (يرثني ويرث من آل يعقوب) . (6 . مريم) قرأها بالجزم ، وقرأها الحسن وحمزة وعاصم برفع

الثاء(211) .

4 . (وهو خادعهم) . (النساء 142) بإسكان العين أو الاختلاس(212)

5 . (أن الله يأمركم) (البقرة 67) بالإسكان أو الاختلاس(213) .

يونس بن حبيب :(182 هـ) (214)

هو أبو عبد الرحمن بن يونس بن حبيب الضبي . هكذا ذكرت الروايات التاريخية اسمه بدون أن تذكر شيئاً عن أسرته ، مثله مثل كثير من العظماء الذين دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه ، وكما وقفت الروايات عند حد اسمه اختلفت في لفظة (حبيب) هل هي اسم أمه أم اسم أبيه ؟ والراجح أنها اسم أمه .

ويختلفون كذلك في كنيته ، واغلب من كتب عنه ذكر انه أبو عبد الرحمن ، وأشار بعضهم إلى انه أبو محمد(215)

أما عن نشأته الأولى فقد أحجمت الروايات عن الخوض فيها بالتفصيل

****

(210) مجاز القرآن 2 \ 259 .

(211) السبعة 407 .

(212) مختصر ابن خالويه 29 .

(213) إعراب القرآن للنحاس 1 \ 176 .

(214) ينظر في ترجمة : .

أخبار النحويين البصريين 27 ، وطبقات الزبيدي 51 ، وأنباء الرواة 4 \ 68 ، والمعارف 541 ، وتاريخ ابن الأثير 5 \ 109 ، وطبقات القراء 4 \ 406 ، ومراتب النحويين 44 ، ومعجم الأدباء 20 \ 64 ، والفهرست 47 ، ونزهة الألباب 47 ، وتاريخ الأدب العربي . بروكلمان 2 \ 130 ، يونس بن حبيب . د . حسين أنصاري ويونس البصري . د . احمد مكي الأنصاري .

(215) الفهرست 47 .

سوى ما ذكرته عن انه نشأ نشأته الباكرة في (جبلة)(216) وهي قرية على دجلة بين بغداد والبصرة متعلماً ومعلماً وهي في أوجها الحضاري ، وبنائها الفكري ، والتقى هناك بعبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، وتلمذ لحماد بن سلمة ، فأخذ عنه النحو فقد قال : (أول من تعلمت منه النحو حماد بن سلمة(217) .

ويغلب على الظن انه تعلم في البصرة التفسير والحديث ، والقراءة ، والنحو ، واللغة ، ورواية الشعر ، والأخبار ، وغيرها ، مما كان من هذا المزيج المتواصل في حينه .

كما اخذ القراءة عن أبي عمرو بن العلاء ، وأبان بن يزيد . ولقي أبا علي الاسواري من رجال الحديث والقراءة ، وعاصر عيسى والخليل من أساتيذ النحو . وكان من شيوخه الإجلاء أبو الخطاب الاخفش . كما اخذ عن الإعراب الفصحاء من أمثال أبي مهدية ، فقد (كانت حلقته بالبصرة ينتابها أهل العلم ، وطلاب الأدب ، وفصحاء الإعراب والبادية)(218) .

وتلمذ ليونس جماعة منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي ، وسيبويه ، وقطرب ، والكسائي ، والفراء ، وروى القراءة عنه أبو عمر أجرمي ، وموسى بن عبد الصمد الابلي .

قال أبو زيد الأنصاري : (جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين ، وجلس إليه قبلي خلف الأحمر عشرين سنة)(219) .

ومن أعظم تلامذته حظا في الشهرة سيبويه ، فقد ذكره في (الكتاب) مائتي مرة .

وكما كان للبصريين النصيب الأوفى من تلامذته ، كذلك كان للكوفيين في

(56/1)

****

(216) معجم البلدان 2 \ 103 .

(217) طبقات الزبيدي 51 .

(218) أخبار النحويين البصريين 27 .

(219) معجم الأدباء 20 \ 65 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 58 .

التلمذة له نصيب آخر ، فالكسائي والفراء من تلامذته ، كما ذكرنا . وكما كان له تلامذة في اللغة والنحو ، كان له تلامذة في الأدب والأخبار ، منهم ، أبو عبيدة محمد بن سلام الجمحي ، وخلف

الأحمر .
ومن المعاصرين له الخليل بن احمد الفراهيدي الذي تفرد بمنهج يختلف عن منهج يونس في دراسة اللغة والنحو أشاعه تلميذه سيبويه من بعده ، وسيكون مادة فصل آخر من هذه الموسوعة .
وكان يونس كثير الحفظ لأشعار العرب ، لاسيما أشعار رؤية بن العجاج . وقال أبو عبيدة : اختلفت إلى يونس أربعين سنة ، أملأ كل يوم ألواحي من حفظة(220) .
كما قال عنه أبو زيد الأنصاري : جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين ، وجلس قبلي خلف الأحمر عشرين سنة(221) .
مصنفاته
صنف يونس مجموعة من المصنفات في اللغة والنحو منها : (معاني القرآن) و (كتاب اللغات) و (كتاب النوادر الكبير) و (كتاب الأمثال) و (النوادر الصغير) وأشار بروكلمان أن له كتاب آخر هو : (القياس في النحو)(222) .
والمنقول عن هذه الكتب قليل ، فقد ضاع أكثرها ، وأشار السيوطي(223) إلى كتاب (النوادر) ، دون تخصيص اهو الكبير أم الصغير ، إذ نقل منه نصاً يفيد أن يونس ذكر في نوادره (أهل الحجاز يقولون : خمس عشرة ، خفيفة لا يحركون الشين ، وتميم تثقل وتكسر الشين ، ومنهم من يفتحها أهل الحجاز : يبطشُ ، وتميم : يبطُشُ ، تميم : هيهات ، وأهل الحجاز : ايهات) .
****

(220) أنباه الرواة 4 \ 70 .
(221) أنباه الرواة 4 \ 71 .
(222) المزهر 2 \ 275 .
دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 59 .

وليس لدينا وصف يذكره المترجمون لهذه الكتب سوى ما نشر منهم فقد قال الدكتور محمد الحلواني(224) .
(وأرجح أن يكون كتاب اللغات مما يبحث في الفروق اللغوية بين الكلمات المتشابهة في الأبنية أو التي لا تختلف بناها إلا اختلافاً يسيراً) .

ثم يقول – الحلواني– (أما كتاب النوادر فيغلب على الضن انه يلم بالكلمات لو العبارات الغريبة أو القليلة الاستعمال ، أو التي سمعت من الفصحاء مخالفة لقبيلها في القياس(225) .

أما المنقول عن (معاني القرآن) والتي نجدها عند أبي عبيدة ، أو عند سيبويه ، وهما وان لم يصرحوا بذلك ، فان طبيعة المادة المنقولة ترجح عندنا إنهما ينقلان من كتاب (معاني القرآن ، لصلة ما ينقلان بتصورنا ومفهومنا لكتب معاني القرآن)(226) .

أما ما أشار إليه بروكلمان عند ذكره لكتاب يونس (القياس في النحو) فلا دليل عليه إلا الظن بالمادة النحوية المروية عن يونس في كتاب سيبويه .

منهجه النحوي

ليونس مذهب نحوي متفرد بين نحاة البصرة ، فقد جمع بين القياس والسماع ، فهو وان كان من أصحاب القياس إلا انه كان ينفرد (بالقياس على القليل المسموع مادام موثوقاً به ، ولو كان شاهداً وحيداً)(227) . وهذه جملة من آرائه :

1 . قال يونس بالغاء (إذن) حينما تقع بعد العاطف ، ذكر هذا سيبويه(228)

****

(224) المفصل في تاريخ النحو العربي 1 \ 208 .

(225) المفصل في تاريخ النحو العربي 1 \ 208 .

(226) ينظر مجاز القرآن 2 \ 193 . 194 ، والكتاب 10 \ 346 و 1 \ 238 ، والمفصل في تاريخ النحو العربي 10 \ 209 .

(227) يونس بن حبيب . الأنصاري 324 .

(228) الكتاب 3 \ 15 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 60 .

بقوله (وهذا قول يونس) .

المسألة هنا مما يقع في القياس الذي تفرد به يونس ، هو الأكثر في لسان العرب (فهو قياس يسنده السماع الكثير)(229) وعزز هذا القول السيوطي(230) : (أن الإلغاء هو الأكثر في لسان العرب ، وان النصب على الأعمال اقل من ذلك والمعروف عند النحاة أن (إذن) إذا سبقت بالواو

أو الفاء جاز أعمالها وإلغاؤها .

أما ما نقله سيبويه من آراء يونس فان يونس نفسه اقر بصحة ما نقل عنه ، فقد روى الرواة عن المبرد انه قال : (ذكر سيبويه عند يونس بن حبيب البصري ، فقال : أظن هذا الكلام يكذب على الخليل ، فقيل له : وقد روى عنك أشياء فانظر فيها ، فنظر فيها ، وقال : صدق في جميع ما قال ، هو قولي(231)) .

2 . الحال معرفة كما يراها يونس معرفة بالألف واللام كقولك : (مررت به المسكين) يقول سيبويه(232) : (وأما يونس فيقول : مررت به المسكين على قوله : مررت به مسكيناً . وهذا لا يجوز لأنه لا ينبغي أن يجعله حالاً ويدخل فيه الألف واللام) .

أما الخليل فكان يقول : (مررت به المسكين) على البدل وفيه معنى الترحم . وكان الخليل يقول : أن شئت رفعته من وجهين فقلت : (مررت به البائس) كأنه لما قال مررت به قال : المسكين هو ، كما يقول مبتدئاً :- المسكين هو ، البائس أنت . وان شاء قال (مررت به المسكين) كما قال : (بنا تميماً يكشف الضباب

****

(229) يونس بن حبيب . احمد مكي الأنصاري 138 .

(230) همع الهوامع 2 \ 7 .

(231) نزهة الألباب 55 .

(232) الكتاب 2 \ 76 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 61 .

وفيه معنى الترحم)(233) وعقب الدكتور احمد مكي الأنصاري(234) على هذه المسألة بقوله : (هذه المسألة من صمم باب الحال . لكنها جاءت عند سيبويه بعنوان : (هذا باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبه) وهي في رأي جمهور النحاة داخلة تحت العنوان . ولا ضير على سيبويه في ذلك ولا تثريب ، وإنما الذي جعلها من باب الحال هو إعراب يونس لها حالاً . يدلك على ذلك قول سيبويه : (على قوله مررت به مسكيناً) . ويرى سيبويه إعراب كلمة (المسكين) بالنصب على أنها مفعول لفعل محذوف تقديره : (لقيت) .. وأية ذلك انه قال : (ولكنك أن

شئت حملته على أحسن من هذا ، كأنه قال : (لقيت المسكين) .
ويضيف الدكتور الأنصاري قائلاً : (أن البغداديين وافقوا يونس على هذا الرأي المبتكر القائل بجواز مجيء الحال معرفة مطلقاً دون قيد أو شرط ، اعتماداً على السماع ، واستناداً إلى القياس على الخبر . مع القياس على المسموع من اللسان العربي ، شعراً ونثراً ، ومن القرآن الكريم) .
وفي هذا الجانب نجد أن البصريين يذهبون إلى تأويل ما ورد مخالفاً لقواعدهم في كلام العرب ، والقرآن الكريم ، فالآية الكريمة (ليخرجن الأعز منها الأذل) أولت على زيادة اللام .
3 . زعم يونس أن أبا عمرو كان :. داري من خلف دارك فرسخان ، يشبه بقولك :– دارك مني فرسخان لأن خلف هاهنا اسم وجعل (من) فيها بمنزلتها في الاسم وهذا مذهب قوي) (236) .
4 . في باب النداء يرى يونس جواز إلحاق علامة الندبة اللفظية صفة المندوب

****

(233) الكتاب 2 \ 75 . 76 .
(234) يونس بن حبيب 183 .
(235) يونس بن حبيب 187 .
(236) الكتاب 1 \ 417 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 62 .
مثل : وأزيد الظريفاه ، ويعد الخليل ذلك من قبيل الخطأ (237) .

يكون ذلك جوازه على حرف الجر وهو محذوف على حين لا يجوز البصريين ذلك ، مستنداً إلى ما سمعه عن الإعراب ، أو جواب رؤية (خير عافاك الله) لمن قال له : كيف أصبحت ؟ .

6 . وفي التصريف قال يونس :– أن (أحوى تصغر على احي) وتكون ممنوعة من الصرف قياساً على كلمة (احمر) وأمثالها ، وخالفه على ذلك عيسى بن عمر فقال : أنها تصغر على (احي) ولكنها تصرف فيدخلها التنوين . كما خالفه أيضا أبو عمرو بن العلاء حين قال :– أن (احي) بياء مشدودة مكسورة منونة ويبدو انه يريد معاملة المنقوص مثل قاضي . وقال سيبويه عن رأي يونس انه

القياس والصواب(238) كما خطأ عيسى وأبا عمرو في المسألة ذاتها .
7 . وفي تصغير الخماسي قال يونس(239) أن سفرجل ، وفرز دق ، وشمردل تصغر على سفيرج ، وفريزد ، وشميرد بحذف الحرف الخامس لأنه في الطرف . على حين صغرها الخليل على سفيرجل ، وفريزدق ، وشميرول ، بدون حذف وهو مما لم يرد في اللسان العربي وقد رجح سيبويه رأي الخليل .
8 . قال سيبويه : إذا لقبت مفرداً بمفرد أضفته إلى الألقاب وهو قول أبي عمرو ويونس والخليل وذلك قولك : هذا سعيد كرز ، وهذا قيس قفة قد جاء ، وهذا زيد بطة ... فإذا لقبت المفرد بمضاف والمضاف بمفرد جرى احدهما على الآخر كالوصف وهو قول أبي عمرو ويونس والخليل . وذلك قولك : هذا زيد وزن سبعة ، وهذا عبد الله بطة يا فتى . وكذلك أن لقبت المضاف بالمضاف . (
9 . في باب الجوازم تفرد يونس بن حبيب برأي لم يبين فيه مبرراً لما ذهب فيه
****

(237) الكتاب 2 \ 226 وانظر : المفصل في تاريخ النحو العربي 1\237 .
(238) الكتاب 3 \ 472 .
(239) الكتاب 3 \ 417 . 418 .
(240) الكتاب 3 \ 294 . 295 .
دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 63 .

وهو انه يرفع الفعل المضارع في جواب الشرط المسبوق باستفهام ففي قولنا : (أإن تأتني آتك) جعلها يونس (آتيك) بإثبات الياء يقول الدكتور احمد مكي الأنصاري(241) (وقد تفرد يونس بهذا الرأي ولهذا عارضه سيبويه ووصفه بالقبح حين قال :– وهذا قبيح مكره) واخذ يشرح ويدلل ويأتي بالأمثلة الكاشفة والحجج المقنعة) .
10 . يرى يونس أن الفعل المضارع الواقع بعد أو حقه الرفع كما في بيت الأعشى :
أن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلون فأنا معشر iiنزل
قال سيبويه(242) وبلغنا أن أهل المدينة يرفعون هذه الآية (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بأذنه ما يشاء) . الشورى 51 . فكأنه والله اعلم قال الله

عز وجل إلا يكلم الله البشر إلا وحياً أو يرسل رسولاً وهذا كلامه إياهم ، كما تقول العرب تحيتك الضرب ، وعتابك السيف . وكلامك القتل . وسألت الخليل عن قول الأعشى ، (وذكر البيت) ، فقال : الكلام هاهنا على قولك يكون كذا أو يكون كذا ، لما كان موضوعها لو قال فيه أتركبون لم ينقض المعنى ، صار بمنزلة قولك : ولا سابق شيئاً وأما يونس فقال : ارفعه على الابتداء ، كأنه قال : أو انتم نازلون وعلى هذا الوجه فسر الرفع في الآية ، كأنه قال : أو هو يرسل رسولاً . وقول يونس أسهل) .

يتبين من هذه الآراء التي شغلت مساحة من كتاب سيبويه أن جملة منها تفيد أن الرجل كان يعالج القضية النحوية بمنظار علمي دقيق ، وينظر إلى كلام العرب نظرة احترام وتقدير ، لأنه بنى آراءه عليه ، على ما سمعه من الإعراب ، واختزنته ذاكرته من علم بكلام العرب وعلى وفق منهجه في السماع والاستقراء . يضاف إلى هذا أن ذاكرة الرجل كانت وعاء لغريب اللغة واشتقاقها ، وما قاله المبرد(243) عنه (كان أبو زيد عالماً بالنحو) ولم يكن مثل الخليل وسيبويه ، وكان يونس من

****

---

(241) يونس بن حبيب 180 .

(242) الكتاب 3 \ 50 . 51 .

(243) نزهة الالباء 102 .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 64 .

باب أبي زيد في العلم باللغات ، وكان يونس اعلم من أبي زيد في النحو) . ويملي القارئ صورة عن علمه في اللغة والنحو ، ومجالنا هنا النحو ، وقد اتضح من خلال الرسائل التي ذكرناها وأبنا رأيه فيها أن يونس قد لم بأبواب النحو وان نظرته إلى الموضوعات النحوية تنبئ عن مرحلة تالية لمرحلة النشأة التي ذكرناها من رجالها أبا الأسود الدؤلي ، وعبد الله بن أبي إسحاق أو عيسى ابن أبي عمر وأبا عمرو بن العلاء ، وكان منهجه – كما يقول الدكتور محمد خير الحلواني(244) يجمع بين الدراسة الوصفية والنظرة المعيارية ، كما جمع بين السماع والقياس .

****

(244) المفصل في تاريخ النحو العربي 1 \ 214 .

المصادر والمراجع

1 _ الإبدال . لأبي الطيب اللغوي . تحقيق عز الدين التنوخي . دمشق 1960 .

2 . أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي الدجني . ط1 . الكويت 1974 .

3 . أبو علي الفارسي . د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي . مطبعة نهضة مصر 1377 هـ .

4 . أخبار النحويين البصريين . السيرافي . تحقيق طه الزيني ، ومحمد عبد المنعم خفاجي . ط1 ألبابي الحلبي . مصر 1955 .

5 . الاشتقاق . لابن دريد . تحقيق عبد السلام هرون . مطبعة السنة المحمدية . القاهرة 1958 .

6 . إصلاح المنطق . لابن السكيت . شرح وتحقيق . احمد محمد شاكر ، وعبد السلام هرون . ط2 . دار المعارف بمصر 1956 .

7 . الأضداد . محمد بن القاسم بن بشار الانباري . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة حكومة الكويت 1960 .

8 . إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس . تحقيق د . زهير غازي زاهد .

9 . الأعلام . الزر كلي . ط4 . بيروت .

---

10 . أنباه الرواة على أنباه النحاة . القفطي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الكتب المصرية . 1952 . .

11 . الإنصاف في مسائل الخلاف . ابن الانباري . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر 1955 .

12 . بغية الوعاة . السيوطي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . البابي الحلبي . القاهرة 1964 . 1965 .

13 . البلغة في تاريخ أئمة اللغة . الفيروز أبادي . تحقيق محمد المصري مطبعة جامعة دمشق 1972 .

14 . البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب . د . احمد مختار عمر . دار الثقافة .

بيروت 1972 .

15 . تاريخ آداب اللغة العربية . جرجي زيدان . مطبعة الهلال . مصر 1911 .

16 . تاريخ النحو العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري . د . علي أبو المكارم ط1 . القاهرة الحديثة للطباعة . 1971 .

17 . التحفة البهية . مجموعة رسائل . القسطنطينية 1320 هـ .

18 . التعريفات . علي الجرجاني . مكتبة لبنان . بيروت .

19 . تنمية اللغة العربية في العصر الحديث . د . إبراهيم السامرائي . القاهرة 1973 .

20 . تهذيب التهذيب . ابن حجر . دار المعارف النظامية . حيدر أباد 1325 هـ .

21 . جمهرة اللغة . ابن دريد . تحقيق د . رمزي منير بعلبكي . دار العلم للملايين . بيروت . 1987 .

22 . الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي . د . عبد العال سالم مكرم . مصر 1977 .

23 . حلية الأولياء . لأبي نعيم . طبعة مصورة دار الكتاب العربي . بيروت 1967 .

24 . الخزانة . البغدادي . تحقيق عبد السلام هرون .

25 . الخصائص لأبن جني . تحقيق محمد علي النجار . ط1 دار الكتب المصرية .

26 . دراسات في اللغتين السريانية والعربية . د . إبراهيم السامرائي ط دار الجيل . بيروت ، ودار المحتسب عمان 1985 .

27 . دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني – نشر محمد رشيد رضا – مكتبة القاهرة 1961 .

(64/1)

---

28 . السبعة لأبن مجاهد . تحقيق د . شوقي ضيف . ط2 دار المعارف بمصر 1980 .

29 . سيبويه إمام النحاة . علي النجدي ناصف . مطبعة لجنة البيان العربي . 1953 .

30 . ألصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها . تحقيق مصطفى الشويمي .

31 . الشعر والشعراء . ابن قتيبة . القاهرة 1966 .

32 . ضحى الإسلام . احمد أمين . ط10 دار الكتاب العربي . بيروت . طبعة مصورة .

33 . طبقات ابن سعد . طبعة دار بيروت ودار صادر . بيروت 1957 .

34 _ طبقات الشعراء . لأبن سلام . دار النهضة العربية . بيروت 1968 .

35 _ طبقات فحول الشعراء لأبن سلام . تحقيق محمود محمد شاكر .
36 _ طبقات النحويين واللغويين . الزبيدي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف بمصر . 1973 .
37 _ عبقري من البصرة . د . مهدي مخزومي . دار الحرية للطباعة . بغداد 1972 .
38 _ العقد الفريد . ابن عبد ربة . تحقيق محمد سعيد العريان . القاهرة 1940 .
39 _ عيون الأخبار . ابن قتيبة . الهيأة المصرية العامة للكتاب 1973 .
40 _ الفاضل . المبرد . تحقيق عبد العزيز الميمني . دار الكتب المصرية 1375 هـ .
41 _ في أصول النحو . سعيد الأفغاني . دار الفكر . بيروت 1973 .
42 _ في التفكير النحوي عند العرب . د . زهير زاهد . ط . بيروت 1986 .
43 _ في اللغة العربية وبعض مشكلاتها . أنيس فريحة . دار النهار للنشر . بيروت 1980 .
44 . الفهرست . لأبن النديم . تحقيق رضا تجدد .

45 . الكامل لأبن الأثير . طبعة مصورة . دار الفكر بيروت 1987 .
46 _ الكامل للمبرد – تحقيق أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة – نهضة مصر .
47 _ كتاب سيبويه – تحقيق عبد السلام هرون – القاهرة .
48 _ لسان العرب – ابن منظور ط بولاق.
49 _ اللغة والنحو – حسن عون ط1 1952 .
50 _ مجاز القرآن – لأبي عبيدة – تحقيق فؤاد سزكين ط2 1970 .

51 _ مجالس العلماء – للزجاجي – تحقيق عبد السلام هرون – الكويت 1962 .
52 _ المحتسب – لأبن جني تحقيق علي النجدي ناصف وجماعة 1386 – 1389 هـ .
53 _ مختصر ابن خالوية – نشر برجستراسر .
54 _ المدارس النحوية – د . خديجة الحديثي – مطبعة جامعة بغداد 1986 .
55 _ المدارس النحوية – د . شوقي ضيف – دار المعارف بمصر 1968 .

56 _ مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو د . مهدي المخزومي .
57 _ مراتب النحويين – أبو الطيب اللغوي – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط2 القاهرة 1974 .
58 _ المزهر – السيوطي – تحقيق محمد أبو الفضل وجماعته – ألبابي الحلبي .
59 _ المصطلح النحوي – عوفي القوزي – جامعة الرياض ط1 – شركة الطباعة السعودية – الرياض 1981 .
60 _ المعارف – ابن قتيبة – تحقيق ثروة عكاشة ط2 – دار المعارف بمصر 1969 .
61 _ معجم الأدباء – ياقوت الحموي نشر مرجليوث – دار المأمون طبعة مصورة – صورتها دار إحياء التراث العربي – بيروت .
62 _ معجم البلدان – ياقوت الحموي – دار صادر – بيروت 1957 .
63 _ مفتاح العلوم – السكاكي – المطبعة الميمنية – القاهرة 1318 هـ .

دور البصرة في نشأة الدراسات النحوية . 69 .
64 _ المفصل في تاريخ النحو العربي . د . محمد خير الحلواني . ط1 . بيروت مؤسسة الرسالة . 1979 .
65 _ مكانة الخليل بن احمد في النحو العربي . د . جعفر نايف عباينة . ط1 . دار الفكر للنشر والتوزيع – عمان 1984 .
66 _ من تاريخ النحو . سعيد الأفغاني . دار الفكر . بيروت .
67 _ من مشاهير أعلام البصرة . د . عبد الحسين المبارك . د . عبد الجبار ناجي مطبعة جامعة البصرة 1983 .
68 _ ميزان الاعتدال . لأبن حجر العسقلاني . حيدر آباد . الركن 1329 هـ .
69 _ من أسرار اللغة . إبراهيم أنيس ط3 . الانجلو المصرية 1966 .
70 _ النحو العربي . العلة النحوية . د . مازن المبارك . دمشق 1965 .

71 _ نزهة الالباء – لأبن الانباري – تحقيق د . إبراهيم السامرائي . ط2 – مكتبة الأندلس – بغداد 1970 .
72 _ نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة – محمد الطنطاوي – ط2 – القاهرة 1969 .
73 _ نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه – جيرارتروبو – مجلة مجمع اللغة العربية – الأردن – العدد الأول – المجلد الأول 1978 .
74 _ النجوم الزاهرة – ابن تفري بردي – دار الكتب المصرية 1932 .
75 _ نهاية الأرب – النويوري ط دار الكتب المصرية .
76 _ وفيات الأعيان – ط بولاق – القاهرة 1299 هـ .
77 _ يونس بن حبيب – د . حسين نصار – أعلام العرب (75) القاهرة 1968 .
78 _ يونس النحوي – حياته وآثاره ومذاهبه – د . احمد مكي الأنصاري – مطبوعات جامعة القاهرة – الخرطوم 1973 .
